

أنسنة المكان

فى روايات عبد الرحمن منيف

دكتور

مرشد أحمد



تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ /٠٣ الإسكندرية

أنسنة المكان

في روايات عبد الرحمن منيف

الناشـــــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنـــــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنـى قبلـى السـكة الحديـد - مسـاكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفـــــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Website

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب : أنسنة المكان فى روايات عبد الرحمن منيف

المؤلـــــف: د. مرشد أحمد

رقـم الإيـداع: ٢٤٩٦ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى: 1 - 228- 328 – 977



أنسنة المكان

في روايات عبد الرحمن منيف

دكتور

مرشــد أحمــد

الطبعة الأولى

٢٠٠٣م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

الإهداء

إلى عشباء ديمومة العشق والخصب

التمهيـــــد

تعد الأنسنة من أروع القيم الجمالية في الفن، لأنها رؤيا فنية فائقة لا تخضع للمقاييس المنطقية، ولا تشابه الأحداث الواقعية، يضفي فيها الفنان صفات إنسانية محددة على الأمكنة، والحيوانات، والطيور، والأشياء، وظواهر الطبيعة حين يشكلها تشكيلاً إنسانياً، ويجعلها كأي إنسان تتحرك، وتحس، وتعبر، وتتعاطف، وتقسو حسب الموقف الذي أنسنت من أجله.

والأنسنة ظاهرة عامة في الفن، والفنان حين يؤنسن الأمكنة والحيوانات والطيور والأشياء وظواهر الطبيعة، ويخضعها لعملية تفاعل حميمة مع الإنسان، لتحقق الدور الإنساني الذي أسنده إليها حين طمح إلى تشكيلها تشكيلا إنسانياً ذا ملامح محددة، وتعابير بينة، في عمله الإبداعي، يمنحها – وهو في ذروة حالته الانفعالية- خاصيته الإنسانية متخذا أحد الأوضاع التالية:

فهو إما أن يدور بمشاعره حولها، ومعها، أو يمزج إحساساته بها، أو ينصهر فيها، وعن الحالة الأولى نقول: إنه متعاطف معها، وعن الثانية متحد بها، وعن الثالثة منعدم فيها، وهذه الحالات الثلاث لون واحد من الترابط، إلا أن الترابط في كل منها ليس واحداً، لأن الفرق بين أنماطه الثلاثة كالفرق بين المشاركة والاتّحاد والحلول، ففي المشاركة تحس الذات المبدعة أنها مع الشيء (المؤنسن) أو حوله، وهي درجتان: عطف وفيه يكون بين الذات والشيء إحساس طفيف وأساس غائم من الشعور، وتعاطف وفيه يكون بينهما فورة انفعالية تكسب فيها الذات الشيء مشاعرها الجياشة، وفي الاتحاد تحس الذات أنها بالشيء، وهو نوعان: تجسيد حيث تمنح الذات الشيء جسمها وأعضاءها وباختصار شيئيتها، وتشخيص حيث تسقط الذات على الموضوع

أهم صفاتها الإنسانية الجوهرية، وتجعله يتشكل ويتحرك، ويحس، ويتطـــور، وفي الحلول تحس الذات أنها في الشيء، ولا تنظر إليه، بل تنظر فيه، إنــــها تراه في داخلها، ولنقل بمعنى آخر، إنها لا تراه، لأنه ليس شيئا خارجا عنــها، وإنما هو ذاتها[1].

وفي هذه الحالات الثلاث تتآلف الذات الإنسانية المبدعة مـــع الـــذات غير العاقلة (المؤنسنة) التي قد تكون مكانا أو حيوانا أو طيرا أو شـــيئا مـــن الأشياء، أو ظاهرة من ظواهر الطبيعة، هذه الذات غير العاقلة تذوب ماهيتــها الحقيقية، وتكتسب عوضا عنها ذاتا إنسانية، لأن الذات الإنسانية المبدعة تقـوم أثناء الأنسنة بعملية إسقاط نفسية لمشاعرها وعواطفــها وخصائصــها علـــى الموضوع الذي تؤنسنه، مما يجعله يتوازى، ويتماهي مـــع الـــذات العاقلـــة، ولذلك تصبح الذات غير العاقلة عاقلة، وتخرج عن وظيفتــها البيولوجيـــة إذا كانت حيوانا أو طيرا، أو الطبيعية إذا كانت إحدى ظواهر الطبيعــــة، لتقــوم بدور إنساني جديد، يتماهي مع ذاتها الجديدة، فيبدو عملها في العمل الأدبـــي متسما بالجمال والروعة.

والفنان يؤنسن تجليات العالم الخارجي، ويدخلها إلى عملـــه الفنـــي، ويدعها تقوم بدورها الإنساني الجديد، لتسهم في خلق المناخ العام الذي يطمـح أن يحققه، وليجعلها تتجاوز مع الإنسان ومشاعره وأفكـــاره، كـــي تشـــاركه المعاناة والقهر والفرح في الحياة، وتجيء هذه المجاورة نتيجة لحاجة ذاتيـــة وفنية، تسعى إلى تفسير الأحداث تفسيرا داخليا متمـــيزا، وتصويـــر الحيـــاة تصويرا خلاقا برؤية جديدة تتسم بالشمولية والإنسانية المطلقـــة، لأن الفنـــان يرى "من الضروري خلق مجاورات جديدة بين الأشياء والأفكـــار تتجـــاوب

---

[1] اليافي، د. نعيم: ١٩٨٣ - تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديـــث، اتحـــاد الكتاب العرب. دمشق، را ص ١٥٦ - ١٥٧.

وطبيعتها الفعلية .. وعلى أساس هذه المجاورة الجديدة للأشياء يجب أن تتكشف لوحة جديدة للعالم مشبعة بضرورة داخلية حقيقية"[1].

لذلك حين يؤنسن الفنان الأمكنة والحيوانات والطيور والأشياء وظواهر الطبيعة في عمله الفني، نتعرف بشكل جديد، يتسم بالعمق والروعة إلى تجليات العالم الخارجي الذي يصبح أكثر حيوية وحياة وإنسانية، ونتلمس في الوقت نفسه رؤية الفنان الفكرية للحياة والمدى الإنساني الذي تتسم به، ونعي الدوافع التي دفعته إلى التعبير عن رؤيته بهذا الأسلوب أو دور الحس الجمالي في تشكيل رؤيته، لأن "الحس الجمالي مكون حيوي للنشاط الإنساني الذي يبحث عن الحقيقة من قبل أن يرى الشيء أو يتأمله، فإذا التقى بالشيء حسياً وشعورياً، حركه مع مشاعره فيجعله ينطق بالحقيقة التي عاشها من قبل في شكل رؤى"[2].

وعبد الرحمن منيف منح المكان على مستوى (النص والخطاب) ملامح خاصة جسدته شخصية اعتبارية، وجعلته يتصدر واجهة السرد، لكونه تجلى بؤرة تشع منها المادة الروائية على أنساق النص الروائي. وعمل على ربطه بالإنسان ربطاً رحمياً، ولذلك أصبحا ذاتاً واحدة.

ولأن الإنسان هو المبدأ الجليل الذي يعتنقه، وغاية الحياة في نظره، ومثله الأعلى خصص نصه الروائي لتصوير واقع الإنسان العربي المتميز بحالة مستمرة من النكوص المرير الذي ينوء تحت سطوته القاسية في ظل إنتفاء المبادئ والقيم والمثل الإنسانية، وانعدام أسس الحياة الكريمة المشروعة، وللتعبير عن تطلعاته وأحلامه وسعيه الدؤوب للخلاص من قسوة

---

(1) باختين، ميخائيل: ١٩٩٠ – أشكال الزمان والمكان في الرواية. تر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة – دمشق، ص ١١٩ – ١٢٠.

(2) سالم، د. نبيلة إبراهيم: ١٩٨٠ – نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية، النادي الأدبي، الرياض، ص ٥٢.

المعاناة الجحيمية التي يكابدها على مختلف مستويات الحياة دون شعور أو رحمة أو رأفة من الآخرين أيا كانوا، لذلك أنسن المكان بمفهومه الشامل كاسم دال على شخصية اجتماعية ذات ملامح متميزة، وأنسن أيضا مكونات المكان من حيوانات وطيور ونبات وأشياء وظواهر طبيعية، وجعلها تحس بالإنسان تعويضا عن غياب أخيه الإنسان وقت الضرورة الملحة، وتعبر عن احتجاجهما على الواقع القاسي الذي يعاني منه الإنسان معاناة قاسية لا تحتمل.

وبهذه الأنسنة كشف منيف عن نظرته الجمالية إلى العالم الخارجي وإلى الحياة كما يجب أن تكون.

مرشد أحمد

الفصل الأول

تجليات أنسنة المكان

الدال على شخصية اجتماعية

تميز المكان في روايات منيف بالقدرة على صياغة شخصية بشـــره الجماعية وفق شخصيته الإقليمية المتميزة، وحدد لهم نمط حياتـــهم، ونسـق علاقاتهم العامة، وضبطها وفق مبدأ جماعي أخلاقي، وجعلهم مشدودين إليـه بشكل رحمي مستمر، ومتمسكين به، لأنه كيانهم، وهويتهم الواحـــدة، فظلـوا متوحدين به، وقد تجسدت هذه الوحدة بسعيهم الدؤوب إلى التخلص من الواقع المزري الذي فُرض عليهم نتيجة تعرض مكانهم لعامل خطير غيّر ملامحـه، وشوّه شخصيته المتميزة، ليواصلوا الحياة الكريمة التي عاشوها من قبل، ممـا جعل المكان يكتسب بتوحده مع بشره ذاتهم الإنسانية، ولأن الذات الإنســانية تتميز بسمات متنوعة يمكن إدراجها تحت رتبين: سـمات حسـنة (إيجابيـة) وسمات سيئة (سلبية). أنسن المكان بهاتين السمتين وسنبين السمات الحســنة ثم السيئة، فالسمات الإنسانية الحسنة التي تميز المكان بها هي:

١- الوعي: إن الوعي سمة ذات مردود كبير على من يتصف بـها، لأنها تمكنه من معرفة الحقائق والأمور والإلمـام بـها، ورصـد العلاقـات الإنسانية المتغيرة، وتقويم أفعال الناس والظواهر الاجتماعية، واستيعابات كنـه الأحداث الخطيرة، واختيار الأسلوب الناجح لتجاوزهـا، وتجعلـه يتصـرف تصرفاً حسناً حين يقع في مأزق صعب. فالطيبة بلـدة تجـاور الصحـراء، وتعتمد في اقتصادها على الزراعة البعلية، ورعي الماشية، وحين حل فيـها القحط، وتكرر مرات عدة متزامناً مع الأمراض الفتاكة، لـم تفقـد رشـدها، وعملت على تجاوزه بفضل وعيها الذي مكنها من اختيار الأسـلوب الملائـم لمواجهة هذه الكارثة والتغلب عليها، وذلك حين لجأت إلى الصيـد كأسـلوب لتأمين لقمة العيش، وإلى الشجاعة كعامل معنوي لتقوي روحها، وتشد أزرهـا "مثلما اختارت الطيبة أن تكون في هذا الموقع على أطـراف الباديـة، فقـد اختارت الصيد والشجاعة، وعرفت كيف تتحمل كل ما يواجهها مـن مكـاره

وصعاب"[1]. وهذا الأسلوب الذي اتعبته لمواجهة المحنة القاسية التي حاصرتها وهددتها بالانتهاء، كان حسنا ومفيدا وحقق الغاية المرجوة منه، فلولا الصيد لفشلت في تأمين كفافها اليومي، وماتت جوعا، ولولا الشجاعة التي تحلت بها، لضعفت إرادتها، وخارت قواها ووقعت في شدق الفاجعة.

وحين عانت من قسوة المحل لأول مرة في حياتها، ورأت أنه يتكرر، بدأت تستعد له بحرص شديد، فلجأت إلى تربية الماشية، لتكون أداتها المعيشية الفعالة في تأمين لقمة العيش ومواجهة الخطر المحتمل ولذلك شرعت تهتم برعاتها اهتماما كبيرا فاق اهتمامها بأبنائها، لأن الرعاة هم العامل الوحيد الذي يحفظ لها حيواناتها التي غدت أملها الكبير في مواجهة الموت المنتظر، فالطيبة التي لا تستطيع أن تطعم أبناءها في سنوات المحل، بدأت تسرف فيما تعطي للرعاة[2].

إن اهتمامها برعاتها بشكل يفوق اهتمامها بأبنائها ليس تصرفا فجا خاليا من روح الأبوة والشعور بالمسؤلية، بل هو تصرف عقلاني فرضه الوضع الخطير، وهو إجراء إنساني ضروري غني بروح الأبوة، وهو نوع من اهتمام الآباء بالأبناء، لأن اهتمام الآباء الملحوظ بالرعاة حافز يدفع الرعاة إلى الاهتمام بالحيوانات التي ستنقذ الأبناء من الكارثة المحتملة حين يحل الجفاف في الطيبة ويدب الجوع في الأمعاء.

وحسن تصرف المكان الواعي يتجلى وقت الأزمة الصعبة، حين تتغير المفاهيم والسلوكيات، وتختلط الأمور وتتداخل، والطيبة حين حل الجفاف في ربوعها، وبدأت تعيش أياما شديدة القسوة، لم تعش مثلها من قبل، تجلى وعيها، وبدأت تتصرف بحكمة، فشرعت تهتم بأمور، وتكف نظرها

---

(1) منيف عبد الرحمن، ١٩٨٠ - النهايات، دار الآداب، بيروت، ط٢، ص ٤٧.

(2) المصدر نفسه. ص ١٤.

عن أمور أخرى، وهي تواجه الأزمة الصعبة لتواصل حياتها بكرامة وإباء "فالطيبة التي تعيش أياما صعبة مريرة،وتبحث عن طريقة لتواصل الحياة، تتغاضى عن أشياء كثيرة بما فيها رعونة الشباب واندفاعهم إلى الصيد بهوس لم يتعوده أحد ،ولم يكن يميزهم من قبل"[1]. إن تغاضيها عن أسلوب الشباب الطائش،وهوسهم في الصيد، دليل على وعيها للظرف الصعب الذي يعيشه البشر، وعلى سمو إنسانيتها، لأنها أدركت حال هؤلاء الشباب الذين لم يجدوا أمامهم وسيلة تخلصهم من شدق الموت جوعا سوى الصيد، لذلك هبوا إلى الصحراء حاملين بنادقهم، وراحوا يصطادون الطيور بأسلوب لم يتبع من قبل.

ووادي العيون الذي تميز بخبرة واسعة في معرفة البشر، وإدراك الدوافع التي اضطرتهم للمجيء إليه، لم تخف عليه حقيقة الأميركيين الثلاثة الذين وصلوا إليه في المرة الأولى، فقد وعى حقيقتهم، وشك في أمرهم، ولم يطمئن لهم، واستطاع بفضل حسن مراقبته لهم أن يميزهم عن كل البشر الذين وصلوا إليه قبلهم. "وادي العيون الذي تعود على مرور القوافل ورأى بشرا من أنماط كثيرة، كان الأميركيون الثلاثة بالنسبة له بشرا من نوع غير مألوف، نوع مختلف تماما، بطريقة حياتهم وتصرفاتهم، والأسئلة التي يسألونها، ثم ذلك السخاء الذي لا يظهر أبدا من المسافرين الآخرين"[2] إن تصنيفه لهؤلاء الأميركيين في رتبة مختلفة عن البشر الذين عرفهم لم يكن ضربا من التوهم والعبث، لأنه لم يصل إلى هذا الاعتقاد إلا بعد أن عرف عن كثب طريقة حياتهم الغريبة التي كانوا يتبعونها في النوم والرياضة وفي

---

(1) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(2) منيف، عبد الرحمن: ١٩٨٤ ـ التيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١. ص ٤٧.

جمع الرمال في صناديق وكتابة أشكال ملونة غريبة عليها، وسمع منهم أسئلة غريبة تتعلق بالرياح والأمطار ومواعيد القوافل التجارية، وأسماء القبائل والمذاهب، مما جعله يتخذ ذلك الإجراء التصنيفي الذي لم يتخذه من قبل.

وكذلك تميزت موران[١] بوعي مكنها من التصرف بحكمة وقت الضرورة، فحين كانت تعاني من محن صعبة متواترة وسط الصحراء القاسية كالوباء الأصفر والجراد والمحل واقتتال أمرائها المائة على الأرزاق والأماكن، لم تكن تفقد رشدها، وتتصرف تصرفا طائشا يزيد من معاناتها، بل "كانت موران تحتال على المصاعب، أو تقاومها، بأن تبعث بأبنائها إلى الأماكن البعيدة بحثا عن الرزق، أو بأن تشجعهم على استعمال القوة لدفع الذين يريدون مزاحمتها على رزقها[٢]" إن اختيارها لأحد هذين الأمرين منطقي، إذ لا يمكنها ان تتشبث بأبنائها لتقدمهم لقمة سائغة للمصيبة التي تعاني منها، لذلك كانت تشجعهم على السفر إلى البلدان البعيدة، ليؤمنوا رزقهم، ولينقذوا أنفسهم من الخطر المنتظر، أما حين يداهمها الغزاة من المناطق المجاورة فقد كانت تحمس أبنائها، وتشد من أزرهم، وتدفعهم إلى مقارعة المعتدين الطامعين بأرزاقها، ودفعهم عن حياضها، ولذلك ظلت بفضل اختيار أحد هذين الأمرين في وقته المناسب تتجاوز محن الحياة الصعبة.

وحين أصبحت عاصمة السلطنة الهديبية ظلت تتمتع بذكائها واتزانها، وتتصرف تصرفا حسنا يدل على نضج شخصيتها الإنسانية. فكانت تخفي حقيقة ما يجول في خاطرها، وتعامل الغريب معاملة خاصة تناسب الغاية

---

(١) قبل أن يستعيدها السلطان خريبط من بنى سحيم، ويضم إليها المناطق التي استولى عليها بالقوة.

(٢) منيف، عبد الرحمن: ١٩٨٩ - تقاسيم الليل والنهار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ط١، ص ٣٣١.

التي جاء من أجلها "وإذا كانت موران... تخشى الغرباء منذ وقت بعيد، فقد تعلمت كيف تبقى رصينة، لا يظهر عليها ما يعتمل في داخلها، ولا ما تفكر فيه، وتعلمت أيضا أن تقوم بواجب الضيافة تجاه هؤلاء، حتى إذا تأكدت من الأسباب التي دفعتهم إلى المجيء تتصرف وفق ما تمليه عليها أخلاقها وعاداتها، الذين جاؤوا بحثا عن الرزق الحلال .. أصبحوا أبناء لهذه المدينة، لا يعرفون غيرها، ولا يفضلون غيرها عليها، وبمرور الوقت اكتسبوا عادات المدينة وملامحها، أما الذين جاؤوا لأسباب أخرى فقد كان لدى موران من القوة النفسية والعناد ما تجعلهم يتركونها دون أسف ودون تفكير بالعودة إليها مرة ثانية"[1]. إن الصحراء شخصية إقليمية متميزة شديدة الغموض، لا يعرف أحد كنهها وأسرارها، وقد صاغت شخصية موران وفق شخصيتها الإقليمية المتميزة، فاكتسبت موران ملامح الصحراء بكل تفاصيلها وأخلاقها، لذلك تمكنت من إخفاء ما يجول في خاطرها من أمور وخواطر. واستطاعت أن تعامل الغرباء معاملة سليمة تناسب الغاية التي جاؤوا من أجلها، فالغريب الذي يأتي من أجل العمل الشريف تغمره بالرعاية و الأمان مثل أي واحد من أبنائها، فيشعر بالسلام، ويتأقلم مع محيطها، ويعيش حياتها الجماعية، ويغدو جزءا من كيانها، أما الذي يأتي من أجل غاية أخرى فإن موران بفضل تعنتها تغلق ذاتها عليه، وتنظر إليه نظرة قاسية تمتلئ بالكره حتى تجبره على الرحيل عن ديارها دون أن يشعر بأي ندم.

ويفضل هذا الوعي تمكنت من معرفة خبايا النفوس، وإدراك الحقائق بأسلوب مناسب، ولذلك امتنعت عن الانجراف وراء الإغراءات والخدع والأوهام "فموران هذه المدينة الخادعة تعرف كيف تلتقط الإشارات، وكيف

---

[1] منيف، عبد الرحمن، بادية الظلمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ص ٤٩٦.

تتحرى الوقائع، تقرأ الكراهية في العيون.. وتميز المشاعر والمواقــف، فــلا تقوى الابتسامات أو الكلمات الكبيرة على تغيير قناعتها"[1].

تتجاوز المحن التي تعاني منها بتصرف تراه مناسبا في حينه إلــي أن تعددت تصرفاتها، ففي المرة الأخيرة حين عم بطــش الســلطان، واســتبدت حاشيته، وتسلط السيف عل رقاب الناس، أدهشت البشر وهي تواجــــه هــذه المحن بلجوئها إلي الصمت الذي رأته مناسبا في المرحلـــة "مــوران التـــي تعودت خلال السنين الماضية أن تواجـــه المصـــاعب والأحـــزان بـــالصبر والسخرية أو بأن يرتحل بعض أبنائها، لا يعرف كيف اكتشفت سلاحا جديـــدا بدا بنظر الكثيرين أقوى وأشد مضاء: الصمت.. في الأسواق، فـــي البيـــوت، في المساجد، وهو صمت مضن شديد الوطأة"[2]. إن لجوءها إلـــى الصمــت لمواجهة بطش السلطة في هذه المرحلة الخطيرة ليس انتكاساً فــــي إرادتـــها ومؤشراً على ضعفها، وهوانها، لأن الصمت في هذه الحالة ســـلاح معنـــوي فعال لمواجهة السلطة التي تشرع في ملاحقة الأحرار، وتمعن في فصل عنق كل ثوري يتفوه بكلمة حق، فيحد من بطشها، ويجنب الكثيرين خطر الانزلاق إلى حافة المقصلة.

وكذلك مدينة العوالي اتسمت بالوعي، وقد استمرت في متابعة الحيـــاة التي ألفتها حين ضمها السلطان خريبط إلى سلطنته، تمكنت من معرفة حقيقـــة الحكام ونفاقهم بفضل الخبرة التي اكتسبتها من تجربتها مع الحكام والأمـــــراء الذين حكموها، ولذلك لم تكن تثق بكلامهم، وإغراءاتهم ووعودهــــم الكاذبـــة "فالعوالي التي ظلت تستقبل السفن والغرباء والأخبـــــار وامتـــلأت ذاكرتـــها بكلمات الحكام .. ورأت الملوك والقادة يأتون ويذهبون، ومع كل ملك وقـــائد

---

[1] المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

[2] المصدر نفسه، ص ٤٩٨.

الموت والحصار والجوع، فقد كانت متأكدة أن الذين يحكمون خاصة من يأتون حديثا لا يصون دائما ما يقولونه .. والوعود التي يطلقونها هي لكسب الوقت وإلهاء الناس أكثر مما هي جدية أو للتنفيذ"[1]. إن عدم ثقتها بكل ما يقوله الحكام لم يكن ظنا بهم، وإنكارا لأعمالهم، بل هو نتيجة تجربتها القاسية معهم، لأن هؤلاء الحكام الذين حكموها كانوا من طبيعة واحدة، لكونهم اتبعوا أسلوبا واحدا أساسه الخداع بالاغراءات والوعود الجميلة، ليرسخوا نفوذهم، ثم تناسوا أقوالهم ووعودهم للشعب.

٢- الوفاء: إن الوفاء ملكة إنسانية عظيمة، تدل على نبل السلوك الإنساني وأصالته، وتقدس أواصر العلاقات الإنسانية السامية، وهي عامل فعال يجبر الكائن الإنساني على أن يبقى مخلصا للإنسان الآخر الذي ارتبط معه بعلاقة إنسانية أصلية إذا تعرض لأمر مكروه. وإنسانية المكان تتجلى بوفائه لأبنائه رغم التحولات المتعددة التي طرأت عليه، وغيرته تغييرا جذريا، ووفاؤه لأبنائه في ظل هذه الحالة المؤلمة هو سلوك إنساني رائع، ومؤشر على الوعي الأخلاقي الذي يتميز به. فبلدة الطيبة حين حل الجفاف بها، وغيرها تغييرا شاملا، بقيت أصيلة كما هي ولم تغير مبادئها، وسلوكها، وحافظت على خيط الرحم الذي يربطها بأهلها الذين صاغت شخصيتهم الجماعية، وحفظت مكانتهم في قلبها، "فالطيبة لم تتنكر، ولم تتغير، وظلت وفية لكل شيء فيها، ولكل إنسان عاش أو مر في يوم من الأيام"[2] لأن "الطيبة لها وجه واحد وليس لها وجهان، كما أنها لن تتخلى عن أبنائها حين يسقطون أوحين يضيعون"[3]. إن سمو إنسانيتها هو العامل الفعال الذي أبقاها

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٠٠.

[2] النهايات، ص ٥٠.

[3] المصدر نفسه، ص ١٧٣.

مخلصة لأبنائها، ومتمسكة بهم، وكلل سلوكها بهذا الوفاء الفذ. فلو كانت نزعتها الإنسانية هشة ورخوة، ولا يخضع سلوكها لوازع إنساني، لتخلت عن أبنائها حين سكنها المحل بكل يسر وبساطة.

وحران تميزت بالوفاء رغم التغيير العام الذي دهمها، فحين وصل إليها اثنان من أبنائها، وهما محمد السيف وعبد الله السعد، وكانا قد تركاها منذ وقت طويل، وظلا يرسلان لأهلهما الرسائل والدراهم، لم تجحد حقهما، وتتقاعس عن إكرامهما، بل أسرعت إلى استقبالهما استقبالاً لائقاً، وغمرتهما بحفاوة منقطعة النظير، وبقيت أصيلة "ولم تغير حران عاداتها، إذ ما كادت القافلة تصل حتى كان الناس في لقائها، وبأسرع مما قدر الرجلان، ومن النظرات الأولى غرقا في جو الأهل والأصدقاء"[1]. إن حسن استقبالها لهذين العائدين، وغمرهما بمشاعر الألفة والود، دليل على وفائها لأبنائها، وتمسكها بعاداتها الأصيلة المتجذرة في أعماقها التي تتميز بحس إنساني رقيع في ظل تغير الحياة التي تعاني منها معاناة شديدة الوطأة.

ومدينة موران لم تكن أقل وفاء لأبنائها من غيرها، فحين عاد عثمان العليان فجأة إليها بعد أن غاب عنها اثنتين وثلاثين سنة، وكان قد تركها، وعمره أربع عشرة سنة، وشرع يبحث عن أهله وأقاربه، لم يتعذب في البحث عنهم، إذ سرعان ما احتضنته، وجمعته بأهله وأقاربه "ولأن موران لا تنسى أبناءها .. سرعان ما وجد عثمان أقاربه"[2]، فعثوره على أهله بسرعة بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة التي أمضاها بعيداً عنهم، دليل على أن موران، لا تتناسى أبناءها، وتقطع صلتها بهم، بل تظل وفية لهم، وتحفظ ذكراهم مهما طالت غيبتهم وبعدت أماكن إقامتهم.

---

[1] التيه، ص ٢٩١.

[2] تقاسيم الليل والنهار، ص ٢٢٣.

٣-التعاطف: التعاطف سمة إنسانية حسنة تحد من أنانية الإنسان، وتهذب سلوكه، وتعلي شأن الإنسان الآخر، وتزيل مساوئه إذا كانت له مساويء، وتجسد محبته، والشعور بالتعاطف يتبلور بحالتين تحددهما حالة الإنسان المعطوف عليه، فيشعر الإنسان بالحزن العميق على الحالة الصعبة التي آل إليها الإنسان الآخر، وبالغبطة على ما ينعم به الإنسان الآخر من يسر وهناء وفرح في الحياة. والأمكنة التي تحترم ذكرى أبنائها، والذين وفدوا إليها واحتضنتهم وظلت وفية لهم رغم قسوة الظروف الصعبة التي تداهمها، لابد أن تتعاطف معهم، وتشعر نحوهم شعورا يناسب الموقف الذي هم فيه، فتعاطف الأمكنة مع أبنائها هو الوجه الآخر لوفائها لهم. فالطيبة التي نظرت إلى عساف نظرة ازدراء وظلم،واتهمته بالجنون، ورفضت أن تزوجه امرأة من نسائها، حزنت عليه حزنا بليغا ما حزنته في حياتها قط حين لقي حتفه في الصحراء، وقد هبت كلها للمشاركة في تشييع جثمانه، وعبرت عن حزنها عليه تعبيرا غريبا لم يكن أحد من أبنائها يتصوره، إذ عم الحزن قلوب الناس، وخيم على فضائها، "فبدا أن الطيبة تبكي نفسها بشكل لم تفعله من قبل"[1]. إن تأثرها بوفاة عساف تأثرا منقطع النظير كان العامل الأساسي في التعبير الخارق عن حزنها الذي أحست به أثناء تشييع جثمانه، وهو إعلاء لمكانته السامية التي لم تدركها إلا بعد وفاته، وتعبير منها عن تعاطفها معه في المصير المؤلم الذي لقيه في الصحراء، وهذا دليل على شعورها الحاد بالإثم الذي ارتكبته بحقه، ومؤشر على روح الإنسانية السامية التي تتصف بها.

وكانت حران أكثر الأماكن شعورا بالحزن على فقدان الناس الذين آوتهم في أحضانها، لأنها فجعت بموت ثلاثة رجال جاؤوا إليها طلبا للعيش

---

[1] النهايات. ص ١٨٢.

وكسب الرزق، فالسائق الأرمني "آكوب" الذي وفد إليها في حلب" كان أصدقاؤه يتكاثرون باستمرار إلى أن أصبح جزءا من حران، وضرورة ملحة لها"[1]. وحين انتهى أجله، حزنت عليه حزنا شديدا مديدا لم تعرفه في حياتها من قبل "نامت حران تلك الليلة والليالي التالية بحزن لم تعرف مثله من قبل"[2]. وقد بلغت إنسانيتها مرتبة الروعة حين عدته مسلما، ولقنته مثل أي واحد من أبنائها، وسمته "يعقوب الحراني"[3] إن شعورها بهذا الحزن العميق على آكوب دليل على عظمة إنسانيتها التي تسامت على كل الاعتبارات الدينية، وتعبير ضمنى عن تعاطفها معه على الواقع الصعب المرير الذي عانى منه قبيل وفاته مع صديقه راجي بسبب منافسة رضائي والنقيب لهما.

وحين توفي "مفضي الجدعان" الطبيب الشعبي الذي جاء إلى حران من أحد الأماكن المجاورة لها، حزنت عليه حزنا شديدا وقد كان يداوي المرضى بالأعشاب والكي دون أي أجر، وكان يساعد الناس، ويقدم لهم خدمات مجانية، وحين انتهي أجله "حران كلها خرجت لوداعه"[4] وعم الحزن، وملأ فضاءها "فنامت تلك الليلة، وقد أحست أن أياما سوداء تنتظرها"[5]. إن خروجها الجماعي لتشييع طبيبها المحبوب دليل على شعورها بالحزن العميق عليه، وتعبير عن إحساسها النبيل بالحالة الصعبة التي عاشها بسبب الاضطهاد الذي مارسته دار الإمارة بحقه،وملاحقتها الدائمة له نتيجة إيعازات من الدكتور "صبحي المحملجي"" وتعبير عن تضامنها وتعاطفها معه لأنه مات غدرا، ولم ينصف.

---

(1) التيه، را ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(2) المصدر نفسه، ص ٤٧٠.

(3) المصدر نفسه، ص ٤٧٠.

(4) المصدر نفسه، ٥٣٤.

(5) المصدر نفسه، ص ٥٣٤.

وقد تجلت إنسانيتها بتشييعها لابن الراشد سمسار الشركة الأميركية المستثمرة للنفط، والمقاول العقاري الكبير الذي وفد إليها في وادي العيون، واشترى قسما كبيرا من عقاراتها، وقد انضم إلى صف دار الإمارة والأمريكيين، ولعب دورا مباشرا في تأجيج معاناة أهلها،وحين لقي حتفه، تسامت إنسانيتها، وتناست مساوئه التي ارتكبها بحقها، وشعرت بالحزن الشديد عليه، وهي تقوم بواجبها الإنساني نحوه "فشيعت حران ابن الراشد بحزن وصمت"[1]. إن تناسيها لمساوئ ابن الراشد، وحزنها عليه وتشييعها لجثمانه، كل ذلك دليل على عظمة الروح الإنسانية التي تتحلى بها، وعلى الوعي الأخلاقي الذي يتسم به سلوكها، ويدل على تعاطفها معه، لشعورها بأنه ظلم نتيجة الحال النفسية الصعبة التي عانى منها قبيل وفاته[2].

وحران التي حزنت على فقدان هؤلاء الرجال، وتعاطفت معهم، فرحت في المقابل فرحا منقطع النظير بلغ حدا غير معقول، وهي تشارك "الدباسي" فرحته بعرسه"، جنت حران تلك الليلة، لم يبق أحد إلا وغنى، حتى المسنون غنوا"[3]. إن مشاركتها في عرس الدباسي، وفرحها اللا معقول به، يعبران عن تضامنها الصريح مع صالح الدباسي وتكريمها له، على موقفه النبيل الذي اتخذه منها في صراعه مع ابن الراشد.

ومدينة موران فجعت بوفاة المناضل السياسي "عثمان المصلح" الذي رفض الاعتراف، فعذبه سجانوه ثلاث ليال متواصلة، مما أدى إلى وفاته، وقد حزنت عليه حزنا عميقا، وظلت تمدحه، "فموران التي شيعته كما لم

---

(1) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

(2) المصدر نفسه، را ص ٣٨٤.

(3) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

تشيع راحداً من أبنائها، ظلت تردد كلماته، وتشيد بصلابتـــه"[1]. إن تشـــيعها لعثمان المصلح بطريقة عظيمة لم تعرفها من قبل، واستمرارها فـــي تناقل أقواله، وتمجيد إرادته المتينة كل ذلك يؤكد لنا مدى إحساسها البليـــغ بـــالواقع الأليم الذي عاشه عثمان، ويؤكد تعطافها، وتضامنها معه.

٤- **الشجاعة:** سمة حسنة في الإنسان، وذات أثر فعّال في ســـلوكه، لأنها تمده بطاقة معنوية هائلة تجنبه الوقوع في شرك التقاعس والتراخي فـــي أداء واجباته التي تتطلب إرادة صلبة، وتمكنه من الثبات في وجه الأزمة التي تحاصره، والتغلب عليها، وتجاوزها. وشجاعة المكان تتجسد بصمـــوده فـــي وجه المحنة القاسية التي يعاني منها، وبسعيه الدؤوب من أجل التغلب عليـــها، وتجاوزها بإصرار شديد، فالطيبة حين حل الجفاف في ربوعـــــها، وهزلـــت حيواناتها، وابتعدت الطيور، وتكرر فيها القحط متزامناً مع الأوبئـــة الفتاكـــة، وعانت معاناة شديدة، لم تكن تندب حظها، وتبكي أيامها المجيدة، بـــل كـــانت تكابر على المحن، و"تعض على جراحها في مواســـم القحـــط والجفـــاف"[2]، وحين داهمها العدو الإسرائيلي الغاشم، لـــم تخـــر قواهـــا، وتتقـــاعس عـــن مقارعته، بل تحلت بالشجاعة إلى أبعد حد، وصمدت في وجهه، وحدت مـــن تقدمه "فبدت الطيبة غريبة المنظر وأشبه ما تكون لحظة من لحظات الحيـــاة الكبرى، اللحظة التي واجهت فيها العدو، قبل عشـــر ســـنين[3]، ومنعتـــه أن

---

(1) منيف، عبد الرحمن: ١٩٩١ – الآن .. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، المؤسســة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ص ١٧٨.

(2) النهايات، ص ٥٠.

(3) زمن هذه اللحظة هو حرب حزيران (١٩٦٧) وهو زمن حكائي مسترجع انتهي حكيه في (١٩٧٧). را النهايات ص ١٨٣.

يتقدم، بعد أن فقد الكثير من جنوده"[1]. إن تحليها بالشجاعة، وهـــي تقـارع العدو بلغ مرتبة البطولة، وقد تمكنت بفضل هذه السمة الحسنة من الصمـــود في وجه المتصدي، ورده عن حياضها، لأن الشجاعة التي اتصفت بها وهـــي تجابه العدو مدتها بطاقة معنوية ساعدتها في تحقيق مالا يســتطيع أن يحققــه كائن لا يعرف للشجاعة معنى.

وكذلك تحلت موران بالشجاعة وهي تواجه المحل والجراد والأوبئـــة وظلم السلاطين الذين تعاقبوا عليها، وقد أكد "شـــمران العتيبـــي" أن مدينتــه واجهت محنا عدة تواترت عليها، وقد تغلبت عليها بفضل شجاعتها العظيمـــة "هذي موران أبد ما تنسى..تتحمل، لكن أبد ما تنسى"[2]. فلو لم تكن تتصــف بالشجاعة لما استطاعت أن تتحمل كل ما مر عليها من تلك المحن الصعبـــة. وشجاعة موران في قول شمران العتبي متداخلة مع سمة الذاكرة، وقد منحـــها منيف هذه السمة في سياقين آخرين من المتن الحكائي لرواياته[3].

وبهذه السمات الإيجابية تجلي المكان شخصية إنسانية سامية، ولكونـه شخصية إنسانية سامية لمسنا فيه بعض الملامح الإنسانية الحسنة التي تمـــيز بها، وتجلت في أكثر من موقف، وقد تجسدت هذه الملامح الحسنة من خــلال الأفعال المنطقية التي قام بها وقت الأزمة الشديدة التي حاصرته، فاســـتطاع أن يحمي أهله الذين يحتضنهم، ويؤويهم من كل أذى عام تعرضوا له بفضـــل وعيه الناضج وشجاعته، لأنهم كنهه، ووجوده نفسه، وتوطيدا للعلاقة الرحيمة التي تربطه بهم، لأنهم لم يتنازلوا عنه، ولم يديروا له ظهورهم في حياتـــهم، ولذلك لم يكن يتوانى في التعبير عن وفائه لكل فرد يستحق الوفاء، ولم يتلكـــأ

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٧٨.

[2] بادية الظلمات، ص ٥٢.

[3] انظر تقاسيم الليل والنهار، ص ٤٠٢، وبادية الظلمات، ص ٢٩٥.

في الوقوف إلى جانب كل واحد تعرض لظرف قاهر حيث شاركه محنته، وعبر عن حزنه العميق لما حل به من ضرر لا دور له بحدوثه. وهذه السمات لم تكن مندرجة في كل الأمكنة ما عدا الطيبة، وموران. فوادي العيون لم يتميز بالوفاء والتعاطف والشجاعة لأن أهله رحلوا عنه، واجتث من جذوره، ولأن الراوي لم يتوغل كثيرا في تاريخه الاجتماعي قدر ما كان مهتما بالتمهيد لوصول الأميركيين. وحران لم تتميز بالوعي والشجاعة لأنها لم تحسن التصرف حين وصل الأميركيين إليها، وتصمد في وجه كل ما حل بها.

أما السمات الإنسانية السيئة (السلبية) التي اتسم بها المكان فهي:

١- **العجز:** هو سمة سلبية تدل على حالة ضعف تعتري المكان، فتضعف قواه، وإرادته، وتحد من قدراته ومعارفه، وتبلد إحساسه وشعوره، وتمنعه عن أداء واجباته نحو بشره، والإحساس بمعاناتهم. فالطيبة التي استطاعت صياغة شخصية بشرها الجماعية صياغة فذة، وزرعت فيهم الخصال الحميدة، وعلمتهم المحادثة بطريقة بدت في نظر أهل المناطق المجاورة عجيبة ورائعة، تعجز عن التعبير عما يجول في خاطرها من مشاعر وأفكار بطريقة سهلة وبينة، وإن حاولت أن تعبر عنها، يبدو تعبيرها غريبا وغامضا "إن الطيبة من أعجب الأماكن وأكثرها غرابة، لا تستطيع أن تفضح عواطفها بسهولة، حتى ولو أرادت أن تقول شيئا فإنها كثيرا ما تقول ذلك الشيء بطريقتها الخاصة، والتي قد لا تبدو مألوفة أو مفهومة"[١].

إن عجزها عن إظهار ما في أعماقها من عواطف وأفكار ومشاعر بطريقة سهلة نتج عن الحيرة التي غمرتها عقب وصول جثة "عساف" التي عثر عليها مختارها ورجال البادية، وهي لم تكن تعرف بعد حقيقة الأمر

---

[١] النهايات. ص ٩١.

الواقع، فامتلأت بالصمت، وراحت تتساءل بعينيها، لتعرف ما جرى من مختارها المحنك الذي بدا تائها وضائعا وخائفا[1].

وعلى الرغم من أنها صمدت في وجه المحل، واستعدت له، وعضت على جراحها في السنوات التي تواتر عليها متزامنا مع الأوبئة والجراد عجزت عن تحمل هذه المصائب المتلاحقة لفقرها وقدراتها المحدودة "فالطيبة التي تستطيع أن تطعم أبناءها أجزاء من لحمها، لا تقوى على مواجهة هذه المصائب سنة بعد أخرى بصدرها المكشوف وإمكانياتها المحدودة"[2]. إن عجزها عن تحمل هذه المصائب بشكل مستمر ناتج عن قلة إمكاناتها المادية التي تمكنها من مواجهة المصائب وتجاوزها، لأن الإرادة الصلبة، والمعنويات العالية، وروح التفاني والتضحية بشكل مجرد لا تكفي لتحمل كوارث الحياة، ومصائبها بشكل متواصل عبر الزمان.

وحران حين اختيرت لتكون مقرا للشركة الأميركية المستثمرة للنفط في السلطنة الهديبية غيرها الأميركيون تغييرا شاملا، وهدموا بيوت أهلها الذين بنوا بيوتا لهم فوق التلال الغربية البعيدة نسبيا، رغبة منهم في أن يظلوا بعيدين عن الأميركيين، وليتجنبوا ما قد يصيبهم لو سكنوا في غير هذا الموقع الذي اختاروه، وقد سميت بيوتهم حران العرب تميزا عن حران الأميركان.

عجزت عن مقاومة موجات الوافدين الغرباء الذين قدموا إليها من كل حدب وصوب طلبا للعمل لأن "حران العرب التي انتبذت مكانا قصيا في محاولة لأن تبتعد، وتهرب مما يراد لها، لم تستطع أن تقاوم طويلا"[3].

---

(1) المصدر نفسه، را ٩٠ – ٩١.

(2) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(3) التيه، ص ٣٦٨.

إن عجزها عن مقاومة الأمر الذي هربت منه لفترة طويلة من الزمان، نتج عن عدم تمكن بيوتها الطينية القليلة من استيعاب موجات هجرة الوافدين الغرباء التي اكتسحتها بشكل متواصل، فحين يصبح عدد البشر كبيرا يفوق العمران لابد أن يتوسع العمران، ويتغير ليتحمل العبء الجديد.

وعلى الرغم من أنها تتميز بسمو إنسانيتها، ورقة مشاعرها، وبقدرتها الفذة على التعاطف مع البشر، لم تتمكن من تخفيف غضب رجل واحد جاء إليها في أحد الأيام "فحران التي شعرت بالحزن إلى درجة التعاسة لم تستطع أن تخفف غضب الرجل"[1]. إن عجزها عن تخفيف غضب الرجل ناتج عن لحظة الضعف التي سيطرت على أهلها حين شاهدوا "هاجم" وهو في حالة من الذهول الشديد، وشعروا أنهم غير قادرين على متابعة النظر إلى وجهه، وتذكروا في الوقت نفسه المصير المؤلم الذي لقيه أخوه "مزيان"، فاستغرقوا في هذا الكم المتراكم من الأسى واللوعة، ولذلك لم تتمكن حران من فعل أي شيء يخفف من هياج الرجل[2].

ورغم انشغالها بأمر هاجم، وشعورها بالحزن العميق عليه، وفشلها في التخفيف من غضب الرجل، وإقناعه في قبول دعوتها، لينام في أحد بيوتها،وتفكيرها بهما طول الليل، لم تتمكن من معرفة حقيقة ما حصل لهما بعد ذلك". فحران التي نامت متسائلة حزينة تلك الليلة، بعد أن تركت هاجما والرجل الذي معه لكي يناما في المسجد، لم تعرف ماذا حصل بعد ذلك"[3]. لقد عجزت عن معرفة ما جرى لهاجم والرجل الذي يرافقه بسبب اعتقالهما تنفيذا لأوامر دار الإمارة التي نصت على احتجازهما في مربط الجمال[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

(2) المصدر نفسه، را ص ٢١٩ – ٣٢٠.

(3) المصدر نفسه، ص ٣٢١ – ٣٢٢.

(4) نفسه، را ص ٣٢٤.

و"موران" التي برعت في كشف خبايا نفوس الناس من النظرة الأولى، ومعرفة كنه مشاعرهم ومواقفهم، لم تتمكن من الشعور بالراحة، ومعرفة الدوافع التي دفعت الدكتور صبحي المحملجي الذي جاء من حران ليعالج السلطان خريبط إلى مغادرتها في اليوم الثالث لوفاة السلطان "فموران التي كانت تغلف حزنها وانتظارها بالصمت، لم ترتح، ولم تفهم لماذا غادر الدكتور صبحي في اليوم الثالث"[1]. إن عجزها عن معرفة الأسباب التي دفعت الدكتور صبحي المحملجي إلى العودة إلى حران بسرعة ناتج عن اعتقادها بان الواجب الأخلاقي يفرض عليه أن يبقى فترة أطول ليقف إلى جانب صديقه الأمير "خزعل" بحكم الصلات والمودة التي تربطهما[2] ، وناتج أيضا عن انشغالها بالوضع الراهن الذي تعيشه بعد وفاة السلطان خريبط، وترقبها لما سيحدث بعد وفاته من حوادث لا تعرف عنها أي شيء.

وحين بدأ النفط ينبثق من ربوع السلطنة الهديبية، وشرعت البواخر الضخمة تصل إلى ميناء حران، لتنقل آلاف الأطنان من النفط كل ساعة إلى مختلف بلدان العالم، ظلت موران غارقة في حياتها، ولم تتمكن من الإحساس بهذا الوضع الجديد الإحساس المطلوب" فبعد أن بدأ النفط يتدفق، وأخذت تصل البواخر إلى حران كل يوم لتحمل آلاف الأطنان كل ساعة، لم تحس موران بذلك إلا إحساسا غامضا"[3]. إن عجزها عن الإحساس بالوضع الراهن الجديد إحساسا مناسبا ناتج عن استغراقها في حياتها القديمة التي ألفتها، لأنها ظلت تنتظر المطر، والقوافل التجارية[4].

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٨٥ – الأخدود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت، ط١، ص ١٠.

[2] المصر نفسه، را ص ١٠.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٧.

[4] المصدر نفسه، را ص ٢٧.

وهذه المدينة التي تغيرت تغيرا عاما شمل مختلف مستويات الحياة،وفتحت فيها مجالات متعددة للعمل، فاحتضنت عددا هائلا من الغرباء الذين وفدوا إليها من أجل العمل، لم تتمكن من تأمين عمل لابنها "صالح الرشدان" الذي ألفته وأحبته، وقالت من خلاله ما لا تستطيع أن تقوله مباشرة أو علنا[1] "فلم تستطع موران أن تستوعبه، أو أن تؤمن له العمل رغم أنها كانت تستقبل كل عام عشرات الآلاف يأتون إليها من كل مكان"[2]. إن عجزها عن تأمين عمل له ناتج عن مهنة الحذو التي يمارسها، هذه المهنة بطلت، وتلاشت بعد وصول السيارات والقلابات التي ملأت شوارعها وحلت محل الدواب في النقل، وعن نقل سوق الحلال الذي كان يحذو فيه دواب الناس إلى العوالي[3].

٢- **التحول:** يعد التحول سمة سلبية في شخصية المكان وسلوكه، ومشاعره، ومبادئه، إذا كان تحولا تراجعيا أي من حالة حسنة إلى حالة سيئة[4]، ولذلك يكون دليلا على حالة ضعف في شخصية المكان. فالطيبة التي تميزت بوعي ناضج مكنها من التصرف تصرفا حسنا في الوقت المناسب، وتحلت بخصال حميدة، لم تتوفر في الأماكن التي تجاوزها، تعرضت للتحول تعرضا فظيعا "وإذا كانت الطيبة كثيرة الصبر والتسامح،

---

(١) المصدر نفسه، را ص ٣٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

(٣) المصدر نفسه، را ص ١٣٨.

(٤) ويعد التحول إيجابيا إذا تطورت الحالة من السلبية إلى الإيجابية، وقد وجدنا حالتي تحول إيجابي لمكانين ثانويين في روايات عبد الرحمن منيف، لم نعمد إلى ذكرهما لعدم اتساقهما مع السمات الإيجابية للمكان، را تقاسيم الليل والنهار، ص ٢١٧ - ٣٠٢.

وتغفر للغرباء مثلما تغفر لأبنائها، فإنها تعرف الغضب في مواسم الجفاف، • وهذا الغضب الذي قد يأخذ شكلا هينا في بعض الأوقات، يتحول في النهاية إلى جنون لا يطيقه، ولا يتصوره أحد"[1]. إن تحولها من حالة إنسانية سامية حسنة تميزت بالصبر والغفران إلى حالة إنسانية سيئة تتصف بالغضب الجامح، ناتج عن تأثرها بالقحط الذي حل بربوعها، وغير معالم حياتها، ولأنها تملك قدرة محدودة على التحمل، وامتلاك الإرادة، وحين يكون الوضع الذي تعاني منه، قاسيا إلى درجة تفوق قدراتها، لابد أن تضعف قدرتها، وتلين إرادتها، فتتبدل مشاعرها تبدلا سيئا، فتشعر بالتوتر والنزق والغضب الذي يزداد حدة بتعاقب الزمان.

و"موران" التي عرفت بذكائها، وحسن تصرفها، وبراعتها في الاحتيال على المصاعب ومقاومتها، كانت تتصرف تصرفا طائشا، لم تكن تتصرف مثله من قبل حين تقسو عليها الحياة، وتتراكم المصاعب على كتفيها إلى درجة كبيرة لا تحتمل. "فموران التي كانت تصبر صبر الجمال على العطش والجوع، حين يستبد العطش أو يزيد على حد معين، وحين ينهكها الجوع، فلا تقوى على احتماله أكثر من ذلك، تنتفض انتفاضة الحمى والجنون والموت، فتقتل نفسها، وتقتل غيرها إلى أن تجد توازنا بينها وبين ما حولها"[2]. لقد استطاعت أن تحافظ على اتزانها، وتصمد في وجه المصاعب التي حاصرتها بفضل إرادتها الصلبة، ومعنوياتها العالية التي كانت تفوق حجم المصاعب التي تعاني منها، وحين اشتدت وطأت المصاعب عليها، وفاقت معنوياتها وإرادتها، وقدراتها المادية البسيطة، لم تتمكن من حمل هذا العبء الثقيل، مما جعلها تفقد اتزانها، وتتصرف تصرفا قاسيا.

---

(1) النهايات، ص ٥١.

(2) الأخدود، ص ٢٧.

٣- الخوف: سمة سلبية تعتري المكان نتيجة شعوره بخطر موهوم غير مرئي، أو حقيقي ملموس، يولد في أعماقه انفعالا دائما أو عابرا حسب ماهية الخطر الذي يشعر به، وإذا هيمن الانفعال بالخطر على نفسية المكان وسلوكه، وحد من نشاطه الحياتي، ودفعه إلى القيام بأفعال وضيعة، يكون جبنا، ولذلك يغدو التخلص من الخوف ضربا من الرجولة والشجاعة، فالطيبة على الرغم من أنها امتازت بشجاعة عظيمة بلغت حد البطولة وهي تقارع العدو الإسرائيلي الغازي، وترده عن حياضها، وصمدت في وجه المصاعب والمحن، بكل إباء وكبرياء، كانت بشكل دائم تخاف من أن تصيبها سنوات الجفاف "فالطيبة التي تعتمد على المطر والزراعة، وعلى ذلك الشريط الضيق من الأرض الذي ترويه العين، تحس في أعماقها خوفا دائما أن تأتي سنوات المحل"[١]. إن خوفها من قدوم سنوات القحط، هو خوف من خطر غير مرئي محتمل الوقوع، وهو ناتج عن طبيعة اقتصادها البدائي الذي يعتمد على الزراعة البعلية ورعي الماشية، وعن قلة ينابيع الماء، ولذلك يمكننا أن نعد خوفها طبيعيا، لأنها مازالت تعيش تحت رحمة قوانين لم تتمكن من ضبطها، وتسخيرها لخدمتها.

و"حران" حين اختيرت لتكون مقرا وميناء للشركة الأميركية المستثمرة للنفط في السلطنة الهديبية، ووسع ميناؤها ليتمكن من استقبال البواخر العملاقة التي بدأت تصل إليها بشكل مستمر، بدأت تشعر بالخوف ينتابها كلما وصلت باخرة إلى مينائها. "فمع وصول كل باخرة جديدة، تهتز حران، تمتلئ بالمخاوف"[٢]. إن خوفها، هو خوف من خطر ملموس لأن كل باخرة تصل إلى مينائها تحمل بضائع وأشياء غريبة، وصناديق كبيرة الحجم،

---

[١] النهايات. ص ١٤.

[٢] التيه. ص ٣١٥.

لا يعرف شيء عن حقيقتها، والمجالات التي ستستعمل فيها، إضافة إلى أن البواخر كانت تحمل أعدادا هائلة من البشر الذين أصبحوا يزدادون زيادة كبيرة تفوق قدراتها العمرانية، وهو خوف طبيعي لمجتمع بدائي لم يألف الآلة بعد، ولا يمكنه أن يتخلص من هذا الخوف الذي ينتابه بيسر وسهولة.

و"موران" حين قرر السلطان "خريبط" فجأة لن يسافر إلى جهة لم يفصح عن مكانها، وأقام فيها مدة طويلة من الزمان، شعرت بالخوف، لأنها لم تتمكن من معرفة مكان سفرته، وأسباب غيبته الطويلة، ولذلك راحت تتساءل عنه أول الأمر باهتمام شديد، ثم بخوف "فموران لم تتوقف عن التساؤل بفضول، ثم بخوف عن غياب السلطان، كانت تفسيراتها تتغير حول أسباب هذا الغياب نتيجة التقدير أو الأخبار التي تصلها"[1] إنها لم تشعر بالخوف، وهي تتساءل عن غياب السلطان إلا بعد أن طالت غيبته، وكثرت تقديراتها حول غيابه، لأنها كانت تتغير باطراد تبعا لتعدد الأخبار التي تصلها تباعا، وهو خوف طبيعي ناتج عن أمر يهمها ويشغل بالها، ولا تعرف في الوقت نفسه شيئا عن صحته، ويمكنها أن تتخلص منه حين تعرف مكان السلطان، والأسباب التي جعلت سفرته تطول.

٤- **القسوة:** سمة ممقوتة، تكون آنية أو دائمة، تعتري المكان نتيجة تصرفه تصرفا غير إنساني وأخلاقي، يتنافي مع مبادئه الإنسانية السامية، وسلوكه الأخلاقي، هذا التصرف الخالي من الروح الإنسانية، والمجرد من القيم الأخلاقية، يقلل من إنسانية المكان وأخلاقيته، ويحط من شأنه، ويصغره في أعين بشره وقلوبهم، ويجعلهم ينظرون إلية نظرة قاسية، لأنه يولد في نفوسهم مشاعر السأم والكره، ويملأ حياتهم بالعذاب والقهر والأسى فالطيبة رغم تميزها عن بقية القرى التي تجاورها بالروح الإنسانية والقيم الأخلاقية

---

[1] بادية الظلمات، ص ١٣١.

التي تحلت بها، وتجسدت بعلاقاتها مع أبنائها والغرباء الذين وفدوا إليها، لم تكن تخلو من تصرفات قاسية تتنافى مع السمعة العطرة التي اشتهرت بها، ولذلك تشابهت مع القرى الأخرى بتلك السمات القاسية، لأن "الطيبة مثل كل القرى والبلدان الأخرى التي تشبهها، من حيث القسوة والسخرية، ورغبة التندر، واختلاق بعض الأكاذيب، وفي اغتياب الناس"[1]. إن هذه السمات السيئة التي تتصف بها، وتجعلها تتشابه مع القرى المجاورة ليست سمات تحمل صفة الديمومة، بل هي سمات عرضية آنية، مارستها في بعض الحالات على رجل واحد من أبنائها هو "عساف" لأنه كان يسلك سلوكا غريبا غير مألوف في مجتمعها، فقد كان لا يبالي بعاداتها وتقاليدها، وكان قليل الاهتمام بمظهره، وشغوفا بالصيد، ومحبا لكلبه الذي كان يسحبه، ويتجول به في شوارعها، ولذلك راحت حين تشاهده بهذا الوضع الذي لم تألفه، وترفضه، تتقول عليه، وتهزأ به[2].

و "حران" التي وصل إليها الأميركيون وغيروها تغييرا عاما لتناسب مصالحهم في نقل النفط الذي يستخرجونه من ربوع السلطنة الهديبية، ووفد إليها الغرباء من أماكن متفرقة طمعا بالعمل وجمع الثروة وملؤوا أرجاءها بالصخب والضجيج، لم تكن رحيمة وأليفة مع هؤلاء البشر، إذ جعلت حياتهم قاسية إلى درجة لم يكونوا يتصورونها أو يتحملونها "فحران التي انشغلت وتغيرت منذ الساعة التي وصل إليها الأميركيون، عرفت كيف تشغل الناس، فتجعلهم يركضون كالكلاب، لا يعرفون إلى أين، ولماذا، وأغرقت الجميع في هموم لم يتصوروا أنهم سيتعرضون لها"[3]. إن هذه القسوة الفعالة التي

---

(1) النهايات. ص ٣٢.

(2) المصدر نفسه، را ص ٣٣.

(3) التيه. ص ٣٦١.

تمارسها خاصة في فصل الصيف الذي يمتد طويلا على البشر الذين وفدوا إليها مستمدة من طبيعة جوها القاسي المرتفع الحرارة والعالي الرطوبة الذي أثر في هؤلاء البشر كلهم، وجعل حياتهم شديدة القسوة وجحيما لا يحتمل[1] ، ومستمدة أيضا من طبيعة الحياة الاجتماعية الجديدة التي خلت من أية ضوابط إنسانية وأخلاقية.

و"موران" حين أصبحت عاصمة للسلطنة الهديبية، وكثر فيها الأميركيون، والغرباء، وبدأ النفط يتدفق في ربوعها، راحت تتغير تغيرا مستمرا، شمل مختلف مناحي الحياة، وقد تجلى تغييرها بشكل أكثر وضوحا وقسوة بعمرانها الهجين المتعدد الأنماط الذي لا يمت لأرضها وتاريخها وتراثها بأية صلة تذكر، والذي انتشر اثر الحركة العمرانية الضخمة التي بدأت فيها، فبدت " مدينة لا ترحم نفسها، ولا ترحم ساكنيها"[2]. إن القسوة التي تمارسها بحق نفسها وبحق أهلها ناتجة عن الحركة العمرانية الضخمة التي تقوم فيها، لأن أنقاض ومخلفات العمران القديم الذي يهدم، بدأت تتراكم بشكل عبثي على أطرافها المترامية، فتبدو كالأحشاء المتناثرة وسط المدى الصحراوى الذي يحيط بها، ولأن أهلها حائرون، يتطلعون حولهم بلوعة واسى ورغبة في أن يخلصوا من الوضع المؤلم الذي يعانون منه معاناة شديدة الوقع ليحسوا بوجودهم، وليعيشوا الأمان الذي فقدوه في مدينتهم، لأن "الحياة الحية مربوطة بمناخ وجودى، يثبت شعور الأمن لدى الساكن، وأن أعماق نفسية ساكن المدينة، هي إدراك للمدينة"[3].

---

[1] المصدر نفسه، را ص ١٨٥، ٣٦٢ - ٣٦٥.

[2] المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

[3] مجموعة من الباحثين: ١٩٧٧، الإنسان والمدينة في العالم المعاصر، تر: كمال الخوري. وزارة الثقافة، دمشق، ص ٣٠٤.

وتغير هذه المدينة القاسية لم يكن تغيرا ماديا فحسب، بل تغيرت تغيرا إنسانيا شمل علاقاتها الأليفة مع بعض أهلها الذين أحبتهم وآوتهم في أحضانها، وقد بلغ هذا التغير درجة عالية من القسوة، بتدني علاقاتها مع "صالح الرشدان" الذي ألفته، وأحبته حين لم تستطع أن تؤمن له عملا، رغم أنها كانت تحتضن الآلاف من البشر الغرباء كل سنة إذ قست عليه قسوة قطيعة حين أنكرته، وغيبته من ذاكرتها" إذا كانت موران قد عرفت صالح فيما مضى من أيام، وأحبت شتائمه وطريقته في التعامل، فإنها ما لبثت أن تجاهلته، ونسيته"[1]. إن هذا السلوك اللاإنساني الذي مارسته عليه بتجاهلها له، وتغييبه من ذاكرتها هو انعكاس مباشر لطبيعة حياتها التي تتغير بتواتر مستمر، ولتدني روحها الإنسانية السامية، واستغراق أهلها في أمور حياتهم الجديدة التي لم يألفوها بعد.

وهذه المدينة التي أصبحت مركز اهتمام كبار أثرياء العالم، وتجاره، ومقاوليه، بلغت قمة القسوة حين راح الفقراء الذين لا يجدون كفافهم اليومي، يتساقطون كأوراق الشجر في شوارعها، وأمام عماراتها الضخمة التي لم ينته بناؤها موتا من الجوع والمرض "فبدت موران في ذلك الشتاء القاسي، وكأنها مدينة أخرى: نزقة، يابسة، عديمة الرحمة، لا تطيق أحدا، ولا أحد يطيقها"[2]. إن موت عدد كبير من الفقراء هو الذي جعلها تبدو شديدة القسوة وفاقدة الروح الإنسانية إلى درجة العدوانية، لأن هؤلاء الفقراء لم يلقوا رعاية من السلطة التي كانت غارقة في همومها خارج الحدود، ولا رعاية من الأغنياء الذين اغتنوا في السنوات الأخيرة، وقد كانوا يكرهون الفقراء كرها

---

[1] التيه، ص ٣٩٤.

[2] بادية الظلمات، ص ٥٣٨.

شديدا وما لقوه من اهتمام بعض أغنياء موران القدامى لم يستطع أن يرد عنهم الموت[1].

و"باريس" المدينة التي تعد رمز الحرية والعذالة والثورية، والتي تحتضن الأحرار والسياسيين من جميع أنحاء العالم، لم تكن أكثر رحمة وإنسانية من الأماكن السابقة، بل كانت في نظر الذين وفدوا إليها مدينة متكبرة قاسية وغير أليفة "باريس هذه المدينة الآهلة إنها بمقدار ما تعطي نفسها، تبقي بينها وبين الغرباء مسافة، ولا تتردد بعض الأحيان أن تكون جافة، وشديدة الخيلاء، خاصة حين يتأبط الغرباء أحزانهم وهمومهم، ويدورون في الشوارع"[2]. هذه المدينة تتعامل مع الغرباء الذين يفدون إليها وفق معايير محددة، تراها مناسبة وضرورية، وهذه الطريقة الخاصة في تعاملها مع الغرباء الذين لا يعرفون مثل هذه المعايير في مدنهم، تجعلها تبدو في نظرهم غير أليفة وقاسية.

وبهذه الملامح الإنسانية، يتجلى المكان شخصية إنسانية تتصف بالسلبية، لأنه عجز عن تحقيق ما يجب أن يفعله، ونتيجة شعوره بالخوف من الأحداث التي تحيط به، وتغيره تغيرا سيئا مما أدى إلى تلاشي إلفته، وجعله مكانا عدوانيا شديد القسوة والدمامة.

والسمات السلبية التي ذكرناها تميزت بها الأمكنة الثلاثة الطيبة وحران وموران باستثناء وادي العيون، لأن الحكي الروائي عن هذا المكان انتهى في الربع الأول من خماسية مدن الملح منذ أن بدأت في وادي العيون عملية التنقيب عن النفط، ثم انتقل الراوي بحكيه إلى حران.

---

(1) المصدر نفسه، را ص ٥٣٩.

(2) الآن .. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، ص ٣٠٤.

وهذه السمات السلبية لا تنفي السمات الإيجابية التي تميز بها المكان[1]، لأن الملامح السيئة هي الوجه الآخر للملامح الحسنة، والإنسان يتكون من هذين الوجهين، فلا وجود لإنسان يتمتع بوجه واحد من هذين الوجهين على الإطلاق.

وعبد الرحمن منيف بهذه السمات الحسنة والسيئة استطاع تجسيد المكان تجسيدا إنسانيا موضوعيا، وقد تجلت هذه السمات الإنسانية التي تميز بها في روايتي النهايات، ومدن الملح فقط، لأنه في هاتين الروايتين انتقل من التعبير عن المكان بالصيغة الفردية التي استخدمها في رواياته التي سبقت تينك الروايتين إلى التعبير عن المكان بالصيغة الجماعية، وهذا الانتقال في تقديرنا هو تطور في تعامله مع المكان. لأن المكان ليس فردا فقط، وإن دل الفرد على الجماعة، وجسد رؤية المؤلف الدالة عليها، والمكان الروائي بقدر ما فيه من جماعة متفاعلة مع محيطها فإنه يمثل الحياة خير تمثيل، ويعبر عنها، ويدل عليها، ويجعلها صاخبة في فضائه بشكل أعمق، وأكثر ثراء وجمالا.

---

(1) ثمة سمات إنسانية تميزت بها الأمكنة عمدنا إلى عدم ذكرها. لأن بعضها لم يندرج مع السمات التي ذكرناها كالطاعة، والنظر، والإصابة بالمرض، والتعود، را. تقاسيم الليل والنهار: ص ١٧، وبادية الظلمات، ص ٤٥٨، ٤٩٧، ٥٠٦، ولأن بعضها درسناه في كتاب آخر مثل سمة (الانتظار) التي استخدمها عبد الرحمن منيف لقفلة الحكي الروائي عن المكان، وثمة سمة إنسانية وحيدة تجلت في رواياته قبل روايتيه (النهايات ومدن الملح) عمدنا أيضا إلى عدم ذكرها، لأن السياق الذي ذكرت فيه يدل على المخاطبة والتحول والقسوة، را. قصة حب مجوسية، ص ٩١ ـ ٩٢.

الفصل الثانى

تجليات أنسنة مكونات المكان

سبق وذكرنا أن البشر أحبوا أمكنتهم وألفوها، لأنها ذواتهم وكياناتهم فظلوا متوحدين بها رغم التحولات الكبيرة التي تعرضت لها، مما جعلها تكتسب ذواتهم الإنسانية، ولأن المكان أنسن، وأصبح ذاتا عاقلة، وهو بحد ذاته مكتظ بعناصر الطبيعة من حيوانات، وطيور، وأشجار، وأشياء، وبظواهرها من قمر، ومطر، وسماء، وريح، وفصول السنة، أنسنت الطبيعة (بعناصرها وظواهرها) التي كونت المكان، وارتبط الإنسان معها بصلة لا شعورية، فحملت ذاته العاقلة، ومشاعره السامية، وإحساسه الحاد، فأحبها الإنسان، وألفها وعاملها معاملة إنسانية سامية، وتعاطف شعوريا معها في بعض الحالات، وعدها في حالات كثيرة شبيهة به، وفي حالات أخرى أفضل منه، وأكثر إنسانية ووعيا. وهي بالمقابل أنست به، وألفته، وأحست بالمحن القاسية التي تعذبه، وتجعل حياته جحيما لا يطاق، فعبرت بطريقتها الخاصة عن إحساسها بمعاناته، وتعاطفها معه، وسخطها على الذين يمارسون تعذيبه، وإذلاله، وتشويه الحياة الكريمة في مكانه. وجاءت أنسنة مكونات المكان في الخطاب الروائي بثلاث صيغ فنية.

١- مخاطبتها خطابا إنسانيا:

إن الخطاب الإنساني يشترط أن يكون المتخاطبان عاقلين، ليتمكن متلقي الخطاب من استيعاب ما يقوله مرسل الخطاب، وإلا كان الخطاب بينهما نوعا من الوهم أو الجنون، ولأن عناصر الطبيعة وظواهرها عاقلة مثله، خاطبها الإنسان بسمو ورقة، كأنه يخاطب إنسانا يحبه، ويجله ويعظمه، فالياس نخلة أحب بلدته "الطيبة" المتميزة بكثرة البساتين والأشجار وحين ساعد والده في زراعة الأشجار شغف بها، وارتبط معها بخيط رحمي، شده إليها، فتماهى معها لوجهها النضر المزدان بالأشجار التي هي عنصر من عناصر الطبيعة، وتوحد معها روحيا، وغدت جزءا من ذاته، لكنه لم يستطع أن يتابع حياته فيها، لأن أهل بلدته قطعوا أشجارهم ليزرعوا عوضا عنها

القطن، مما جعلها تخسر وجهها الأخضر، فلم يعد يطيق البقاء فيها، فذهب إلى الجبل القريب منها، وفيه تعايش مع الطبيعة، وتآلف مع عناصرها،وكان يخاطبها، وينقل إليها مكنونات أعماقه، وقد حكى لمنصور عبد السلام عن هذه الأيام التي قضاها في الجبل حين التقيا في إحدى عربات القطار "لو سألتني عن الحيوانات لقلت: إن لها طباعا غريبة .. وقد أعطيت لعدد منها أسماء جميلة وكنا نتحدث من بعيد، كنت أفهمها، وكانت تفهمني"[1]. إن عزلة إلياس نخلة في الجبل دفعته إلى الاستغراق في الطبيعة، فراح يتأمل عناصرها، ويراقبها عن كثب، فأوجد نوعا من التعاطف معها، لأن الطبيعة هي ذاته التي يعيها، ولذلك أمسى يخاطب الحيوانات.

وخطابه لها هو نوع من الاحتيال على العزلة التي يعيشها في الجبل، ووسيلة لتفريغ أساه ولوعته على فقدان الأشجار التي زرعها، ولإملاء الفراغ الذي يشعر به، ولإشباع الدافع الاجتماعي الذي بدأ يضج في أعماقه.

وخطابه للحيوانات تجلى بشكل أكثر بروزا في خطابه لحماره سلطان، فبعد أن ترك الجبل، اشترى حمارا أبيض اللون، وسماه "سلطان"، وبدأ ينتقل به بين القرى، ويبيع نساءها أشياء نسائية متعددة، وكان يعامله معاملة حسنة رقيقة، كأنه يعامل إنسانا عاقلا، وحين كان في قرية المغيريب في دار "حنة" التي تزوجها فيما بعد، أراد أن يمضي بحماره بسرعة حتى يصل إلى قرية المحربة قبل غروب الشمس، لكن الحمار لم يمتثل لرغبته، فجلس وحدثه برقة كأنه يحدث طفلا "جلسنا وطال جلوسنا، وقد حاولت أكثر من مرة أن أتحدث معه بهدوء، قلت له ننام في القرية، وهي لا تبعد عنا أكثر من ساعة، قلت ننام في الطاحونة، وهي لا تبعد أكثر من ساعة من الناحية

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٧٩ - الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ص ٥٣.

الثانية، قلت نستريح يوم غد كله، فلا نبيع ولا نشتري"[1]. إن معايشته لحماره سلطان جعلته بشكل لا شعوري يتعاطف معه ويمنحه مشاعره، ويتحدث معه برقة ورجاء، وكأنه يتحدث مع إنسان عاقل. والخطاب الموجه من إنسان عاقل إلى حيوان ليس أمرا غريبا ومستهجنا، لأن طبيعة المواقف التي تفرض نفسها على إنسان يمارس عملا يعتمد على حيوان، تجبر هذا الإنسان أن يخاطب حيوانه خطابا إنسانيا يختلف محتواه حسب طبيعة الموقف.

والأشجار التي هي مؤشر على ذات إلياس، لم تكن في منأى عن خطابه الإنساني فبعد أن تشرد في المدينة، وعمل في عدة مهن، رجع إلى الطيبة، وعاد إلى ذاته (الطبيعة)، فزرع أشجارا في قطعة أرض صغيرة اشتراها، وحين أقبل الربيع، راح يخاطب أعواد الأشجار بعذوبة وحنان كبيرين "كنت أجلس عند كل عود، أنظر إليه بلهفة مجنونة، أحدثه، أسأله إن كان يشكو من عطش أو عذاب .. كنت أسأل دون تعب حتى إذا جاء الدفء رأيت كثيرا من الأعواد النحيلة تحمر عقدها وتتكور .. أما الأعواد التي لم تظهر براعمها، فقد حزنت لأجلها كثيرا .. تحدثت معها بصوت عال، أشجعها على أن تبدأ الحياة"[2]. إن مخاطبته لأعواد الأشجار الصغيرة ناتجة عن تعاطفه معها، لأنها ذاته التي افتقدها أول مرة، وهو لا يريد أن يفقدها مرة ثانية، ولذلك راح يخاطبها بتلك الروح الرقيقة، وكأنه يخاطب إنسانا معذبا.

و"الروي" بطل "قصة حب مجوسية" الذي هام بحب امرأة متزوجة "ليليان" خلال رحلة استجمام في أحد المتنزهات الجبلية، لم يستطع محادثتها،

---

[1] المصدر نفسه: ص ١٧٣، وثمة مواضع عديدة، را ص: ٦٧، ٧٥، ٧٨، ٨٠.

[2] المصدر نفسه، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

ليعبر لها عما يجول في أعماقه، من مشاعر جياشة، فراح يتأملها من بعيـــد، ويراقب تحركاتها خلسة كيلا يكتشف زوجها أمره. وحين وقف فـــي شـــرفة الفندق محتميا بشجرة صغيرة كانت تشكل حاجزا بينه وبين زوجها، لينظـــر إلى محبوبته، وهي تتناول طعام الغداء في صالة الطعام، خاطب تلك الشـجرة التي هزها طفل بيده بلهجة توسل من أجل أن تبقى لتحميه من زوجها الـــذي بان وجهه "قلت للنبتة الخضراء التي عادت لتستقر: أيتها الشـــجرة المباركـــة فيكل الأوقات، ارتفعي سدا بيني وبين الذين يريدون قتلـــي"[1]. إن الحمايـــة التي منحتها الشجرة للراوي، وهو يتمتع بالنظر إلى محبوبته، كـــانت الدافـــع اللاشعوري الذي حرضه على التعاطف معها ومخاطبتها خطابا إنسانيا برقـــة ممزوجة بالرجاء والأمل. والإنسان في حالات كثيرة حين يكـــون مســـتغرقا في الأشجار، ويعلق عليها آماله، يجد نفسه، يخاطبها بشـــكل عفـــوي كأنـــه يخاطب إنسانا آخر.

و"رجب إسماعيل" السياسي الثوري الذي أدرك أن شـــعبه يضطـــهد، وتسلب كرامته، وحريته، وأحس بواجبه الإنساني الأخلاقي نحو أهـــل بلـــده، سعى إلى إصلاح فساد النظام الحاكم المستبد في بلـــده الواقـــع فـــي شـــرق المتوسط، لكن السلطة الحاكمة زجت به في السجن، وأنهك السجانون جســـده بالعذاب الوحشي، حتى أشرف على حافة الموت، فاضطر إلـــى الاعـــتراف بترك العمل السياسي، وخرج من السجن. وحين كان في زنزانته يتلوع مـــن شدة العذاب صادف نملة سوداء، فخاطبها برقة وهو يقدم لها زاده البسيط "لـن أتركك الآن، ستبقين هنا ثلاثة أيام، أنت ضيفي، بعد ثلاثـــة أيـــام يمكـــن أن

---

(1) منيف. عبد الرحمن: ١٩٧٩ - قصة حب مجوسية، المؤسسة العربيـــة للدراســـات والنشر. بيروت. ط٣، ص ١٣.

نتحدث"[1]، وحين رآها تبتعد عن رغيف الخبز، حملـها، ووضعـها فـوق الرغيف، وقال لها: "ألا تعرفين العادة أيتها النملة المقدسة، يـا ضيـف الله؟ الضيافة ثلاثة أيام، قولي عني ما تشائين"[2] إن إحساسه بالوحدة والعذاب فـي هذا المكان الموحش اللاإنساني دفعه إلى أن يمنح ذاته للنملـة، لأنـه أحـس بقسوة الحياة التي تحيط بها في هذا المكان، فتعاطف معها، وخاطبها برقـة، محاولا إكرامها وحمايتها، وإلحاحه على استضافة النملة لمدة ثلاثة أيام، وهـو في هذه الحالة السيئة في مكان عدواني، مؤشر على سمو النزعة الإنسـانية السامية في ذاته، وعلى سلوكه الاجتماعي المتجذر فـي العـادات العربيـة الأصيلة.

وبعد أن خرج من السجن، سافر إلى فرنسا على متن باخرة ركـاب يونانية تدعى "اشيلوس"، وقد احتضنته الباخرة، وغمرته بالحرية التي حـرم منها في بلده، فأعجب بها وألفها، واتخذها صديقة له، وراح يخاطبها خطابـا إنسانيا بلهجة سامية ممزوجة بالأسى والعذوبة، وقد تنوع نص خطابه حسـب محتوى الحدث الذي يسترجعه من ذاكرته، وحسب الحالة النفسية الآنية التـي يعيشها، ولأنها أصبحت صديقته التي لم تر السجن في حياتها، أخبرها عـن أثره قائلا: "أشيلوس يا صديقتي، يا صديقتي، أنت لم ترى السجن، لو رأيتـه يوما لتغير صوتك"[3]. إن الحرية التي منحتها له جعلته يأنسـها، ويتعـاطف معها، ويتخذها صديقة له في رحلته إلى غرب المتوسط، فشـرع يخاطبـها خطابا إنسانيا، ليخبرها عن السجن الذي هو أسوأ وأفظع مكان في بلده، هـذا المكان العدواني الذي سيصيبها - إن رأته - بالذهول والدهشة، ويغير نفسيتها

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٨١ - شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ص ٨٠.

[2] المصدر نفسه، ص ٩٨.

[3] المصدر نفسه، ص ٨٠.

من شدة الاضطراب الذي سيعتريها، ويهز كيانها، فهو يريد أن يؤكد لـــها أن السجن في بلده يجعل الأشياء الجامدة،تهلع من فظاعته، وقســوته، ووحشــية العاملين فيه.

وقد بلغ التعاطف بينه، وبينها حد المشاركة والاتحاد في الفعل، ولأنــه يسعد بالتعاطف معها، طلب منها أن تستمر في سيرها وتبتعــد "اهــتزى يــا أشيلوس، وابتعدى، أنا أبتعد، أبتعد"[1]، إن شعوره بالحرية والأمان والــدفء والسلام الذي بدأ يغمره، وهو على متن الباخرة، منذ أن شرعت تبتعــد عــن شواطئ بلده، كان الدافع الشعوري الذي دفعه إلى الاندماج معها، ومخاطبتــها خطابا إنسانيا، فطلب منها أن تسرع، وتبتعد عن بلده الذي حــرم فيــه حــق الحياة الإنسانية الكريمة ليصل إلى شاطئ بلد الحرية في أقرب وقت ممكن.

لقد كانت أشيلوس لرجب إسماعيل جسرا عبر عليه من شــاطئ بلــد الظلم والاستبداد والعبودية إلى شاطئ بلد الحرية والعدالـــة، لذلــك خاطبــها مرات عدة[2]، وتغنى بفضلها، وأراد أن يغنى، وينظم الشعر لها[3]، "ليعكــس أهميتها عنده، فهي وسيلته في الهروب من الشرق وســجونه نحــو الغــرب الليبرالى .. وهي أول إرهاصات الغرب بحريتــه وإنســانيته التــي يفتقدهــا الشرق"[4].

كما أن أنسنتها بتعاطفه معها لعطاءاتها الخيرة التي جعلته يخاطبـــها خطابا إنسانيا عذبا، أضفت على جو الرواية المحزن روحا إنسانية سامية، لــم تتجل في بلد رجب إسماعيل. فجسدت قسوة بلده الواقع في شــرق المتوســط

---

[1] المصدر نفسه، ص ٧٩.

[2] إضافة إلى ما ذكرناه، را ص ٧٨، ٩٦، ١٠٣.

[3] المصدر نفسه، را ص ٨٠.

[4] الغزي، تامر: ١٩٧٧ – البنية والدلالة في شرق المتوسط، شــهادة الكفــاءة فــي البحث، جامعة تونس، كلية الآداب، منوبة، ص ١٠٣ – ١٠٤.

الذي يمعن في استبعاد الناس واستلابهم، ولم تأت أنسنتها مجرد نوع من الهذيان لإنسان معذب، اضطهد، وفقد إرادته فقد "وظفت الباخرة أشيلوس في شرق المتوسط لتجعل عنصرا مساعدا على مجابهة المكان الذي يحيل عليه عنوان الرواية، فكانت بمثابة المكان الذي يتحدى المكان أو يصارعه"[1].

وزكي نداوي السياسي المعذب بهزيمة حزيران، بعد أن ترك الجسر الذي بناه بمساعدة رفاقه ليعبروا النهر كي يصلوا إلى ساحة المواجهة مع العدو لأنهم أجبروا على تركه، وطلب منهم الادبار، لينجوا بأنفسهم، شعر بالهزيمة تملأ كيانه، وهو في غمرة هذا الشعور المؤلم أحس بالجسر قد شعر بالهزيمة أيضا، فخاطبه قائلا: "أنت لا تهزم، نحن الذين هزمناك .. ونحن الذين هزمنا"[2]، إن الحب الذي منحه للجسر حين كان يبنيه، وهو يعلق عليه آمال النصر، جعله يشعر بالأسى واللوعة على فراقه، فتعاطف معه، ومنحه مشاعره المكتظة بلوعة الهزيمة. ولذلك أحس بأن الجسر قد هزم لأنه رآه من ذاته المهزومة، فخاطبه خطابا إنسانيا لينفي عنه وطأة الشعور بالهزيمة.

والكلب وردان الذي رافق زكي نداوي في رحلة الصيد قرب الحدود تلقى خطابات إنسانية من صاحبه، وكان نص الخطاب الكلي المرسل إليه طويلا ومتنوعا، إذ تميز محتواه بالإجلال والإكرام والازدراء والاحتقار[3]، ولأن الهزيمة جوهر المادة الروائية في رواية "حين تركنا الجسر" رأينا من المناسب أن نذكر ما يتوافق وهذه الأزمة الصعبة. فمما قاله زكي لوردان، "يجب أن نتعود شيئا واحدا يا وردان .. لو سألتني أي شيء يجب أن نتعود

---

[1] ثابت، محمد رشيد: ١٩٩١ – روايات عبد الرحمن منيف أشكالها ودلالتها، شهادة التعمق في البحث، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب، منوبة. ص ١٠٠.

[2] منيف عبد الرحمن: ١٩٩٠ – حين تركنا الجسر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٥، ص ١٣٧، ورا ص ١١٤، ١١٦.

[3] المصدر نفسه، را ص ٨، ١٠، ١٣، ٣٥، ٣٦.

لقت لك دون انتظار أن لا ننهزم"[1]، إن الألفة التي امتدت بين زكي ووردان دفعته إلى لتعاطف مع كلبه، فمنحه ذاته المهزومة، فبان الكلب مهزوما من خلال ذات صاحبه، ولأن زكي نداوي يسعى إلى التخلص من وزر الهزيمة التي تؤلمه، وتعذبه، بين لكلبه ضرورة تجنب الهزيمة.

والعجوز "أم الخوش" التي تاقت لعودة ابنها "الخوش" الذي غاب منذ فترة طويلة، كانت وهي في رحلة انتظارها له، تجوب وادي العيون طيلة النهار، وتسأل عنه كل من تصادفه، ولم تتوان عن محادثة الأشجار والحيوانات وسؤالها عن ولدها "كانت تدور في الوادي منذ الفجر وحتى الغروب أو بعده، وفي ذلك الطواف الذي لا ينتهي .. تتحدث مع الأشجار والحيوانات، وتسأل كل من يصادفها إن رأى الخوش أو سمع شيئا من أخباره"[2]. إن تلهف العجوز لعودة ابنها، دفعها إلى أن تهيم على وجهها، وتترقب عودته، وفي رحلة بحثها عنه استغرقت في الطبيعة ومنحتها مشاعرها الإنسانية، فرأتها من خلال مشاعرها المكتسبة إنسانا، ولذلك خاطبتها خطابا إنسانيا لعلها تقول لها شيئا عن الخوش الذي أضناها بغيابه الطويل.

وما نلاحظه في محتوى نص هذا الخطاب الذي أرسله البشر إلى عناصر الطبيعة ومظاهرها، أن معانيه اقتصرت على التعبير عن الحزن العميق المتغلغل في أعماق البشر الذين خاطبوا الطبيعة خطابا إنسانيا نتيجة المعاناة القاسية التي يعيشونها في أماكنهم التي تعددت أنماط الحياة فيها، فهذا الخطاب ليس مجرد نوع من الهذيان لهؤلاء الناس المعذبين الذين يعانون من وطأة الحياة، بل هو تعبير عن رغبتهم التواقة للخلاص من شدة ما يعانون

[1] المصدر نفسه، ص ١٣٧.

[2] التيه، ص ٥٨.

منه، لأنهم لم يجدوا أحدا في أماكنهم أحس بمعاناتهم، وواساهم، وبما "أن الذات الواحدة في نظرهم قادرة على أن تتحل في ظواهر فردية عديدة، فإنها يمكن أن تحل في ذوات أخرى. وتمنحها من طبيعتها لكي تضيفها تلك الذوات الأصلية إلى خصائصها"[1]. لذلك إلتفتوا إلى الطبيعة، وناجوها برقة وعذوبة نتيجة سمو نزعتهم الإنسانية التي هي في المحصلة النهائية نزعة الروائي عبد الرحمن منيف.

فهذا الالتفات ليس ضربا من التوهم أو الخيال أو المستحيل، لا يمكن أن يقع في الحياة اليومية، بل هو أمر ممكن الوقوع إن لم يكن واقعيا لأن الإنسان حين يكون مستغرقا في الطبيعة يجد نفسه بشكل عفوي يخاطبها، ويناجيها، ويبثها مشاعره، وكأنه يخاطب إنسانا وفيا يحبه، ويفرح بلقائه.

٢- تبلور نزعتها الإنسانية:

إن الطبيعة التي خاطبها البشر المعذبون، ومنحوها ذواتهم العاقلة، وخصالهم الإنسانية السامية، لم تكن بلهاء، لا تعي خطابهم، أو صماء أصمت أذنيها عن سماع خطابهم، أو صلداء لم تحس بهم، بل كانت عند حسن ظنهم.

حيث اكتسبت مشاعرهم، وأحست بمعاناتهم، وتعاطفت معهم، وعبرت بطريقتها الخاصة عن صدى انفعالها بمحتوى خطابهم، وعن تأثرها بالواقع المفجع الذي يحيط بهم، ويعانون منه معاناة شديدة القسوة في أماكنهم.

ولأن الطبيعة التي صاغت شخصية المكان، تتكون من عناصر متعددة هي الحيوانات، والطيور، والنباتات،والأشياء، ومن ظواهر متعددة هي السماء، والقمر، والمطر، والرياح، سنبين تجليات أنسنة كل عنصر بشكل منعزل عن العنصر الآخر.

---

[1] الحميدي، د. أحمد جاسم: ١٩٨٧ - البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف. دار الأهالي، دمشق، ط١، ص ٤٥.

فسلطان حمار إلياس نخلة لم يكن حيوانا في نظر صاحبه، بل كان إنسانا يحس، ويفرح، لأن إلياس يعتقد "أن للحمير ولكل جنس الحيوان أرواحا مضيئة تشتعل بالحنان والرغبة"[1]، وقد أحس بهذا الاعتقاد حين أخذ حماره من قرية المحربة بعد أن تركه فترة من الزمان "عدت إلى المحربة بسرعة، حيث تركت الحمار لأحضره،ونبدأ العمل .. ما كدت أرى الحمار حتى أنكرته تماما، كان ضعيفا مهزولا، ولم ينم منذ وقت طويل، وفي زاوية الحاكورة، حيث كان يقف، ووجهه إلى الجدار بدا لي حزينا، وهو يمسح وجهه بالجدار، تقدمت نحوه بهدوء، لا أريد أن يراني، ومثلما كان يفعل دائما، أحس بشيء، رفع رأسه، عب الهواء، حرك أنفه أكثر من مرة، ثم بدأ يلتفت، لقد أحس بوجودي. وفي لحظة تغير كل شيء، تحرك فيه الدم، ضرب الأرض بحوافره نهق فبدت أسنانه بيضاء لامعة، كأنه يضحك من الفرح .. وما كاد يراني حتى سمعت صوتا ضعيفا أقرب إلى البكاء يمتلئ به صدره، وبدأ يدور حول نفسه من الفرح، ثم تهاوى على الأرض، ومرغ جسده على الجانبين بالتراب، كأنه إنسان يسجد إلى الأرض ويقبلها"[2]، إن هذا الوضع السيئ الذي آل إليه نتيجة افتقاده لألفة إلياس ولمعاملته الحسنة الملأى بالرعاية والعطف والحنان التي كان يغمره بها، جعله يعبر عن غبطته حين رأى صاحبه إلياس قادما إليه بعد غياب طويل - والحيوانات التي تألف صاحبها تعاف نفسها الأكل والشراب، وتصاب بالهزال والسأم حين يتركونها لسبب ما - وهذه الغبطة التي شعر بها هي انعكاس مباشر لفرحة الياس التي شعر بها حين رآه بعد أن تركه فترة من الزمان، وحين شاهده بوضع قاس، تعاطف معه، ومنحه مشاعره الملأى بفرحة اللقاء، فرآه

---

(1) الأشجار واغتيال مرزوق، ص ٧٨.

(2) المصدر نفسه، ص ٧٧ - ٧٨.

من خلال هذه المشاعر التي منحها له، ولذلك أحس بأن حماره فرح بلقائـــه، وعبر عن فرحته بطريقته الخاصة.

و"فرس" والد زكي نداوي حين مات صاحبها، رفضـت أن يمتطيـها أحد، وحزنت عليه حزناً شديداً إلى درجة الموت "فبعد أن مات أبي لم يستطع أحد أن يركب فرسه، كادت تموت بعده، ولولا أن أخي أبعدها عـن البيـت لهلكت كانت تصهل بتلك الطريقة الحزينة، وكأنها تنعيـه"[1]. إن إحسـاس الفرس بافتقاد صاحبها الذي ألفته، لأنه كان يعاملها برفق وسمو ومحبة مثلما يعامل زوجته[2]، أثر في نفسيتها، وبدل سلوكها، وجعلها تتعاطف معه، وقـد عبرت عن تعاطفها معه، برفضها لأي إنسان حاول أن يمتطيـها، وحزنـها الشديد عليه بذلك الصهيل الذي لم تصهله من قبل. وتعاطف الفـرس مـع صاحبها هو تعاطف الراوي "زكي نداوي" الذي عبر عـن افتقـاده لوالـده، وحزنه عليه من خلال تصرفات الفرس. فحين رأى فرس والده، ترفض كـل إنسان يحاول أن يمتطيها، وسمع صهيلها الذي لم يكن يسـمعه مـن قبـل، تعاطف معها، ومنحها مشاعره الحزينة، فرأى سلوكها وحزنها مـن خـلال مشاعره التي منحها للفرس.

و"غصن البان" الحصان المحبب إلى قلب السـلطان "خزعـل" كـان ضمن مجموعة الخيول التي أرسلوها إليه من موران حين كان يمضي شـهر العسل في مدينة بادن بادن الألمانية، وقد مات هذا الحصان حزناً على وفـاة السلطان بعد بضع ساعات فعند "الظهر رأى عدد من الحرس غصـن البـان يغادر الاسطبل، كان يمشي هادئاً نحو القصر، توقف عند الادراج، تطلع إلـى فوق، دار حول القصر، كان يمشي بهدوء، ورأسه يتشمم الهواء، دار مرة ثـم

---

[1] حين تركنا الجسر، ص ١٠٧.

[2] المصدر نفسه، را ص ٣٢.

أخرى، تطلع إلى فوق، ثم عاد بهدوء أيضا إلى الاسطبل، وقبل الغروب مات غصن البان"[1]. إن وفاة غصن البان حزنا على صاحبه السلطان خزعل، هو تعبير مباشر عن حزن الحرس على موت سلطانهم، فحين تمكن غصن البان من الخروج من الاسطبل بسبب انشغال أهل القصر كلهم بوفاة السلطان واتجه نحو مبنى القصر، تعاطف الحرس معه، ومنحوه مشاعرهم الحزينة، وحين مات فسر موته من خلال مشاعرهم التي منحوها له.

وفي تقديرنا أن موت غصن البان هو تعبير عن موقف الراوي الذي جسد قسوة النظام الحاكم الذي تلا نظام السلطان "خزعل" ليس على البشر فحسب بل على الخيول حين أرسلوها من بيئتها المحلية الصحراوية إلى بيئة غريبة شديدة البرد، لتموت فيها.

و"كلب" عساف الفهد، لم يكن كلبا، بل كان إنسانا حاول إنقاذ صاحبه من الخطر، حين تعرضت للعاصفة في الصحراء، ثم دافع دفاعا مستميتا ليرد عنه أذى النسور حتى مات فوقه في نفس المكان، ولما وصل أهل الطيبة لنجدة عساف "كان عساف مدفونا بالرمل .. لم يكن يظهر إلا رأسه .. وفوق الرأس تماما كان الكلب رابضا .. وكان الجزء الأكبر من جسد الكلب مدفونا بالرمل أيضا، لكن بطريقة غريبة .. كان يشكل سياجا حول جسد عساف، خاصة رأسه .. كان يحتضنه .. عساف مات قبل الكلب. ولابد أن بعض الطيور .. أحست وعرفت بذلك، وجاءت لتأخذ نصيبها منه .. لكن الكلب، وفي محاولة لحماية عساف صارعها حتى صرعته، لقد مزقت رأسه بمناقيرها لتصل إلى عساف، وفيما هو يدافع عن نفسه، وعن عساف، تهشم.. وعساف لابد أن يكون قد قام وسقط عدة مرات .. والكلب حين رأى عساف

---

[1] منيف. عبد الرحمن: ١٩٨٩ - المنبت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١. ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

يسقط قام فوقه .. لابد أنه حاول إنقاذه بشكل أو آخر"[1] إن إحساس الكلب بالخطر الذي داهم عسافا دفعه إلى التعاطف مع صاحبه في الأزمة الصعبة التي تعرض لها، فحاول إنقاذه أول الأمر، وحين لم يتمكن من إنقاذه، بعد أن دافع عنه دفاعا مستميتا، احتضنه بجسده، وفداه من أجل أن يحميه من أي أذى، وبذلك بلغ تعاطفه مع عساف حد المشاركة في الفعل (الموت) "فالكلب كان ظهيرا لعساف، ومناصرا له، ارتبط الاثنان معا في الحياة والموت، وموت عساف، كان إيذانا بموت الرديف الآخر الذي استشهد دفاعا عن عساف الميت"[2]. وهذا التعاطف الكامل الذي بذله الكلب لصاحبه بلغ بفعل المشاركة في الموت درجة الروعة في الجمال.

و"الجمال" التي كانت مربوطة بسور الفسحة الصغيرة التي اتخذت أول سجن في حران، حين شعت بالحالة الصعبة التي يعيشها المسجونون، حزنت عليهم حزنا بليغا "فالجمال التي كانت لا تتوقف عن المضغ .. وهي تتحرك، وتستدير بين فترة وأخرى بدت أكثر حزنا من أية جمال أخرى، كانت تدير ألسنتها وحلوقها،وكأنها تشتم، وتنظر إلى كل ما حولها بحقد"[3]. إن إحساس الجمال التي تطل على السجن بالحزن على المسجونين، هو نتيجة استغراق الرجل الغضوب الذي كان يرافق "هاجم" برؤية هذه الجمال، حيث تعاطف معها، ومنحها مشاعره وحزنه على هاجم ومزيان، وحقده على دار الإمارة التي لم تنصف هاجما وأخاه مزيان، فبدت هذه الجمال المطلة على سور السجن فقط حزينة حاقدة.

---

(1) النهايات، ص ٩٤.

(2) المعموري، ناجي: ١٩٨٠ – حين تركنا الجسر، وزارة الثقافة. بغداد. ع ١٠٤. س ١٥، ص ١٥٨.

(3) التيه، ص ٣٠٥.

و"الغزلان" التي تعيش في أماكن تجاور الصحراء، لم تكن في منـــأى عن إحساسها بالبشر، فالغزال الذي كان في بيت ابن نفاع، مات حزنـــا فـــي نفس اليوم الذي مات فيه مفضي جدعان "اقترب الغزال كثيرا مـــن مفضـــي وتشممه .. وفي الليلة ذاتها مات الغزال"[1]، إن مــوت هــذا الغــزال يتفــق وموقف الراوي من الوقائع التي رافقت موت مفضي الجدعان فقد أبان فيـــه تعاطفه معه ومع كل الطبقة الشعبية في حران التي وقعـــت تحــت ســطوة الأميركيين، وقسوة دار الإمارة، والانتهازيين الذين استغلوها استغلالا فظيعـا كما أن موت الغزال حزنا على مفضي الجدعان، هو إكرام له لأنه قدم للنــاس في حران خدمات دون أي مقابل.

و"الغزلان" التي مرت مصادفة بالقرب من عيـــن فضـــة، وســـمعت مطربها سعد الجريان الذي يجعل الناس يركضون نحوه حين يسمعون صوتـه العذب، أنست أهل عين فضة، وأصبحت من حيواناتهم الأليفة "إن شلعة مـــن الغزلان كانت تمر بالقرب من عين فضة في إحدى الليالي، وحيـــن ســـمعت سعدا يغني توقفت، ثم اقتربت، وقبل أن تنتهي الليلة أصبحت لا تخـــاف، ولا تجفل من البشر"[2]، إن استئناس الغزلان بأهالي البلدة بعد أن سمعت صـــوت سعد الجريان هو نتيجة تعاطف الناس الذين كانوا يســـمعون صـــوت ســـعد الجريان مع الغزلان، فحين شاهدوها تقترب منهم، وهم يصغون لغناء ســـعد، منحوها مشاعرهم، وفسروا اقترابها من خلال المشاعر التي منحوهـــا لـــهم. ويبدو أن هذه الغزلان لم تلق أية مضايقة أو أذى منهم خاصة وهم فرحـــون، ومنتشون بصوت سعد، لذلك شعرت بالأمان، وبدأت تأتي مساء كل يوم إلـــى بلدتهم، إلى أن ألفتهم، وباتت جزءا من حيواناتهم الأليفة.

---

[1] التيه، ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

[2] بادية الظلمات. ص ٢٠.

وما نلاحظه في إنسانية هذه الحيوانات المتعددة (حمار، كلب، حصان، جمال، غزلان) التي تنتمي إلى البيئة المحلية، أنها لم تكن مجرد بهائم اقتصر وجودها على الناحية الحسية، بل ذابت ماهيتها الحيوانية، واكتسبت ذات الإنسان العاقل، فخرجت عن وظيفتها المعروفة، وقامت بدور إنساني هو الإحساس بمأساة البشر، والتعاطف معهم، ومشاركتهم المصير المؤلم في بعض الحالات، لأن "الحيوان لديه مقدرة معينة على التجريد، إذ يستطيع أن يتخلص من الانطباع الحسي الواحد، ليدرك أشكالا وجسوما وإيقاعات، فالتصوير القديم الذي كان يرى أن عالم الحيوانات يكاد ان يكون قاصرا على أحاسيس عشوائية لا معنى لها، قد أصبح في ضوء تقدم بحوث علم السلوك بمعزل عن أي أساس"[1].

وأن الطابع العام الذي شمل تعاطف الحيوانات مع هؤلاء الناس هو التعبير عن الحزن-باستثناء غزلان عين فضة- وهذا الحزن العام إن دل على شيء فإنما يدل على قسوة الواقع الإنساني الذي عاشه هؤلاء الناس في أماكنهم بسبب ترهل الواقع الإنساني فيه، وانحطاط سلوك الناس، وتلاشي قيمهم الإنسانية، وانحدار أخلاقهم.

وبتعاطفها مع هؤلاء المعذبين تجلى الواقع الإنساني في النص الروائي أكثر رحمة من الواقع الإنساني الذي عاشه هؤلاء الناس في أماكنهم، لأنهم بقوا وحيدين في أزمتهم، وما أحس أحد بهم قط، ومجابها له في الوقت نفسه.

والطيور تعاطفت مع الناس الذين رأتهم يقعون تحت سطوة فعل قاس، وعبرت عن تعاطفها معهم بطريقتها الخاصة، فالطيور التي كانت

---

[1] بلسنر، هلموت: ١٩٦٩ - الإنسان بوصفه كائنا حيا، تر: مجدي يوسف. فكر وفن. ميونيخ، ع ١٣، س ٧، ص ٤.

موجودة في قفص في غرفة مدير السجن "توري"، كانت تقفز، وتنظر بطريقة استهزاء، حين ترى رجب إسماعيل ورفاقه يضربون، ويذلون "كانت الطيور تغرد إذا دخلنا، كانت تنتقل من طرف القفص إلي الطرف الآخر، وتنظر إلينا بسخرية، وتقفز، كانت هكذا، حتى ونحن نضرب، التفتت مرة وأنا ملقى على الأرض ويداي معصوبتان تحت ظهري.. كنت أتمزق من الألم، كنت أريد أن أبكي، رأيتها ما تزال تقفز"[1] إن الأسلوب القمعي المهين الذي يلقاه رجب أثناء التحقيق معه في غرفة مدير السجن، والذي يعتقد بأنه أسلوب دنيء يحتقره كل إنسان يعرف للإنسانية معنى، جعل رجب إسماعيل حين رأى حركات الطيور ونظراتها، يتعاطف معها، ويكسيها مشاعره، ويمنحها ذاته، فرآها من خلال ذاته التي اكتسبتها فباتت تنظر بسخرية إلي ما حولها.

و"العصافير" التي كانت واقفة على سور بيت ابن نفاع تزقزق، حين حانت لحظة وفاة "مفضي الجدعان" ماتت، وسقطت على الأرض دفعة واحدة "فالعصافير التي كانت تقف على سور البيت تهاوت جميعها في لحظة واحدة، وأكلتها الكلاب التي كانت تنبح بطريقة غريبة"[2] إن تعاطفها مع المتوفى بموتها فجأة – والتعاطف بالموت هو أقصى درجات التعاطف–حكاه الراوي معتمدا على ذاكرة بعض الصبية الذين كانوا عائدين من المدرسة إلى بيوتهم في التلال الغربية[3]، وهذا الحكي هو نوع من تعاطفه مع مفضي الجدعان بطريقة غير مباشرة.

و"يمام" مسجد السلطان خزعل، اهتاج وغضب، وملأت أصواته فضاء المسجد، حين رأى عددا من الناس ينفذ الحد عليهم بقطع أيديهم، لأنهم

---

[1] شرق المتوسط، ص ٩٧.

[2] التيه، ص ٥٣٧.

[3] المصدر نفسه، را ص ٥٣٧.

عدوا لصوصا، وقد بلغ تعاطفه معهم حد مشاركة شمران العتيبي الفعل الذي كان يقوم به "قال كل من كان في ساحة مسجد السلطان خزعل، ورأى شمران هائجا مثل جمل، إن يمام المسجد لم يكن يقل عن شمران هياجا، كان اليمام يطير فوق الرؤوس تماما، كما لم يفعل من قبل، ويصفق بأجنحته، وتصدر منه أصوات وحدها كانت، وصوت شمران تملأ الساحة، وفي لحظة معينة عندما انتزع شمران غترته، وعقاله، وأخذ يلوح بهما، وكأنه يهزج أو يهد، كان اليمام فوق رأسه يشاركه، كان يسف، ويحلق"[1]، إن تعاطف يمام المسجد مع الناس الذين نفذ الحد عليهم، بمشاركة شمران العتيبي الهياج والغضب، وإصدار الأصوات العالية، هو تعاطف مباشر للذين كانوا متحلقين حول هؤلاء الناس الذين قطعت أيديهم، فحين شاهدوا اليمام يطير، ويصدر أصواتا عالية، استغرقوا في حركته، وسماع صوته العالي، فتعاطفوا معه، ومنحوه مشاعرهم الغاضبة، ففسروا ما يفعله اليمام من خلال مشاعرهم. ونريد ان نقول عن تعاطف اليمام مع هؤلاء الأشخاص ، إن الراوي يعبر عن وجهة نظره المنسجمة مع سلوك شمران العتيبي الإنساني، والأخلاقي، وكشف اللثام عن موقفه (الراوي) من السلطة الحاكمة في موران بلجوئها إلى مثل هذا العقاب بدلا من رعاية الفقراء وتأمين لقمة عيشهم.

و"الأشجار" في روايات عبد الرحمن منيف لم توظف على أنها جزء ضروري من الطبيعة لسياق محدد من الحكي الروائي فقط، بل وظفت لتدل على معنى عظيم غير هذا المعنى البسيط، ولتقوم بدور آخر أكثر حركة وجمالا فلذلك أنسنت، وتبلور حسها الإنساني بوضوح ظاهر.

---

[1] الأخدود، ص ٦١١.

ولأن الأشجار كانت المحور الأكثر بروزا في حياه الياس نخلة، لأنها ارتباطه الوحيد بالحياة[1]، نالت جل اهتمامه، وقد تماهي معها، وغدت ذاته، فرآها إنساناً يحس، ويحن، ويعطي، وبلور حسها الإنساني بمعانٍ سامية تنوعت حسب الموقف الشعوري الذي يعيشه. وقد قرن الأشجار والمرأة في رتبة واحدة "إن النساء والأشجار لهن طبيعة واحدة"[2]، وبذلك يكون قد أنسنها، ومنحها أعظم سمه إنسانية خيرة، لأن المرأة (إنسان) هي رمز للخصب، والأشجار (الطبيعة) رمز للخصب. ومن هذا الفهم أحس بأن الأشجار التي زرعها مع والده كانت إنساناً خيّرا رقيقا وجميلا "كانت أشجار البستان تزهر في ذلك الوقت، وتصرخ بنداءات حنونة، تبشر بموسم الخير، ولم اكن أرى في الدنيا أجمل منها، كانت أجمل من الصبايا، وأرق من النبع"[3]. ثم أعلى من شانها، وعظم إنسانيتها، حين شبه الأم التي هي رمز للحنان والإحساس والطيبة بها "إن الأمهات .. يمتلكن إحساساً خارقاً بالأشياء، إنهن مثل الأشجار لا يتكلمن كثيراً، ولكن يعبرون عن أنفسهم بطريقة لذيذة[4]. ولأنه حرم من الأشجار، أصبحت الشغل الشاغل الذي هيمن عليه طيلة أيامه وهو معتصم بالجبل، حيث كانت تتراءى له بحالات إنسانية متنوعة حسب تغير الأيام في فصول السنة "كنت أفكر فيها ليل نهار، أتصورها واقفة بشموخ وسط السهول الجرداء المتربة، أتصورها تداعب الرياح، وتحتضن العصافير .. كنت أتصورها مقرورة في الشتاء، وقد نحلت، وتعرت، وتقترب من الأرض عندما تصفعها الرياح، تزيد حماية

[1] الأشجار واغتيال مرزوق، را ص ٤٨.

[2] المصدر نفسه، ص ٦٥.

[3] المصدر نفسه. ص ٤٨.

[4] المصدر نفسه. ص ٥٥.

ودفئاً"[1]. إن هذه السمات الإنسانية العظيمة التي منحها للأشجار ناتجة عن تماهيه، وعن حبه لها، وتعاطفه المتواصل معها، وكان يمنحها مشاعره الآنية وأفكاره بشكل مستمر، ويراها من خلال مشاعره، وأفكاره، ويعاملها معاملة عذبة تدل على أنه إنسان يتمتع بحس جمالي رائع تجاه الطبيعة.

وقد تجلت روعة إنسانية "أشجار وادي العيون" بمحاولتها التشبث بالأرض، وهي تتوجع، وتصارع مقدمات التراكتورات ذوات الحافات المسننة، فعندما كانت هذه الآلات "..تهجم مثل ذئاب جائعة على الأشجار، وتبدأ تمزقها، وترميها أرضا الواحدة بعد الأخرى.. كانت الأشجار وهي تميل، وتترنح قبل أن تسقط، وتصرخ، تستغيث، تولول، تجن، تنادى نداء أخيراً موجعاً، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرع، وكأنها تحتج أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد في محاولة لأن تنبثق، لأن تنفجر مرة أخرى"[2]. إن إحساس الأشجار بفراق أرضها أوجعها، ودفعها إلى الصراخ، وطلب المساعدة كمحاولة وحيدة للتشبث بالأرض التي تقتلع منها، لتبقى فيها إلى الأبد. وهذا الإحساس هو نتيجة تعاطف الراوي المتعاطف مع البشر والحياة والطبيعة في وادي العيون. وحين كان يحكي عملية اقتلاع الأشجار تعاطف معها، ومنحها مشاعره الآنية المتوهجة، ورغبته في أن تبقى في مكانها ولا تجتث، لأنها مؤشر على الخصب والحياة والتاريخ في ذلك المكان. ولذلك رآها من خلال مشاعره، ورغبته إنساناً يتوجع، ويستغيث رافضاً الاجتثاث ليبقى في مكانه إلى الأبد.

و"الأشياء" الجامدة التي لا تحس، ولا تشعر، ولا تعي، بدت متحلية ببعض المشاعر الإنسانية في روايات عبد الرحمن منيف، فالجسر الذي

---

(1) المصدر نفسه، ص ٥١.

(2) التيه، ص ١٠٥.

شارك زكي نداوي رفاقه في بنائه، لم يكن مجـــرد مجموعـــة مـــن القطـــع الحديدية الصماء العديمة الحس، بل كان إنساناً شعر بـــالذل والإهانـــة، لأن الجنود الذي بنوه، تخلوا عنه، ولم يمروا من فوقه ليصلوا إلى ساحة المواجهـة مع العدو "كان الجسر ونحن نتركه في ذلك اليوم ذليلاً[1]، إن زكـــي نـــداوي الذي يشعر بالذل يملأ كيانه، حين ترك أرض المعركة، وأدبر نحـــو الخلـــف لينجو بنفسه، ألقى نظرته الأخيرة على الجسر، ومنحـــه مشـــاعره الذليلـــة، وذاته، ولذلك رآه ذليلاً ولا سيما أنه يعتقد بـــ "أن للجسور أرواحاً"[2].

وقد ارتقت إنسانية الجسر إلى حد البطولة، وهـــو يقـــارع الأحـــداث وحيداً "تركنا الجسر وحيداً، وكان بصدره يواجه كـــل شـــيء"[3]، إن إدبـــار الجنود الذين تخلوا عن جسرهم، وعرضوه للأذى، جعل زكي نداوي الذي لـــم يكن راغباً في تركه، لأنه كان يسعى إلى مواجهة العدو، ليرمي الرصـــــاص على صدره[4]، يحس بأنه بقي وحيداً يواجه العـــدو عوضـــاً عـــن أبنائـــه. فتعاطف زكي معه، ومنحه رغبته في مواجهة العدو، فرآه من خـــلال هـــذه الرغبة، ولذلك اعتقد أن الجسر راح يواجه العدو لوحده.

و"المزهرية" التي كانت في غرفة "عادل الخالدي" وهو في المشـــفى، لم تكن مجرد قطعة زجاجية تحتضن الزهور، بل كانت إنساناً وفياً يريـــد أن يتشبث بإنسان آخر سيفارقه "المزهرية التي كانت تبقى صامتة على طـــرف الشباك أياماً طويلة، أخذت تنظر إلى بحزن، تحولت إلى عين كبيرة، لا تتعب من التحديق إلي، وكأنها تطلب مني البقاء وترجوني"[5]، إن اضطرار عـــادل

---

(1) حين تركنا الجسر، ص ١٣٢.

(2) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(3) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(4) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(5) الآن هنا .. أو شرق المتوسط مرة أخرى، ص ١٣٥.

الخالدي إلى مغادرة المشفى ولد في نفسه شعور الحزن، لأنـــه كـــان يلقـــى الرعاية والاهتمام والمحبة من كل العاملين فيه، فألف المشفى ألفـــة كبـــيرة، وحين هم بالخروج من غرفته، ورأى المزهرية التي كان ينظر إليها خـــلال وجوده في الغرفة، حزن على فراقها، فتعاطف معـــها، ومنحـــها مشـــاعره الحزينة، ورغبته في البقاء، ولذلك رآها إنساناً حزيناً يدعوه إلى البقاء.

وظواهر الطبيعة لم تكن في منأى عن عملية الأنسنة، فقد أنسنت مثل عناصر الطبيعة، وخرجت عن معناها الطبيعي الصرف إلى معنى آخر أكـــثر روعة من معناها المحدد. فالقمر في عيني الياس نخلة لم يكن مجرد هالة مـــن نور تسبح في صدر السماء ليلاً، بل كان وجه إنسان كئيـــب مشـــرف علـــى البكاء "كنت أنظر إلى القمر فأرى وجهاً حزيناً، يكاد يبكي، وهو يطل علـــى الطيبة"[1]. إن إلياس نخلة كان يشعر وهو معتصم بالجبل واللوعة على بلدتـــه التي ابتأست بعد أن قطعت أشجارها، وحين رأى القمـــر بنـــوره المضـــيء يتصدر صفحة السماء المعتمة تأمله، ثم استغرق فيه، ومنحه مشاعره الحزينة الآنية، ورآه من خلال هذه المشاعر الحزينة وجه إنسان حزين يكاد أن يبكـــي على الطيبة، وهو يطل عليها، فالقمر ما هو إلا وجه اليـــاس، وهـــذا ليـــس بمستبعد لأن الإنسان كثيراً ما يرى القمر حسب حالته النفسية التي يعيشـــها، فالإنسان السعيد يرى القمر كأنه وجه إنسان ضاحك من ســـعادته، والإنســـان الكئيب يراه كأنه وجه إنسان شاحب من شدة الحزن.

وما نود أن نقوله في هذا السياق: إن الياس نخلة بأنســـنته للطبيعـــة (الحيوان، الأشجار، القمر) وارتباطه بالمكان (الطيبة)[2] يكشف عن نظرتـــه الجمالية إلى الحياة بمفهومها الشامل، وهو كأي إنسان شعبي يعتمد في حياتـــه

---

[1] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ٥٢.

[2] المصدر نفسه، را ص ٤٦، ٤٨.

على الارتباط بالطبيعة لعطائها الخيّر، يمنح عناصرها ومظاهرها أرواحاً بشرية تدرك، وتحس، وتشعر، وتعطى، وتحزن، لأنه لا يستطيع أن يرى العالم الطبيعي المحيط به شيئاً جامداً، لا حياة فيه. وهذه النظرة في تقديرنا هي نظرة الروائي عبد الرحمن منيف إلى الحياة، وهي جزء من بنيتّه الفكرية التي تجلت في أول عمل روائي له، وتعددت سماتها في الأعمال التي تلت تلك الرواية.

والقمر الذي كان يملأ فضاء حران بنوره المشع أول المساء، غاب في تلك الليلة حزناً على موت مزيان غرقاً أثناء عملية تعميق البحر في شاطئ "حران" فحين هبط الظلام في تلك الليلة شعر الرجال بحزن شديد، ولا يتذكر أحد منهم أنه رأى القمر الذي كان يملأ السماء"[1]. إن استغراق العمال الحزانى بموت زميلهم "مزيان" الذي يحبونه، ويكنون له كل تقدير وإعجاب بعد أن جاء ابن الراشد إلى معسكر العمال ليقدم العزاء لهاجم شقيق مزيان[2] شغلهم عن رؤية القمر الذي كانوا قد شاهدوه أول الليل، ولذلك لم يعد بإمكان أي واحد منهم أن يتذكر أنه رآه مرة ثانية. وهذا التغيب للقمر هو دلالة على تعاطف الراوي مع مزيان بطريقة ضمنية، وتعبير عن اعتقاده بأنه ضحية يستحق التضامن والتعاطف.

والقمر الذي كان يملأ السماء مساء يوم الجمعة الذي أعدم فيه "خميس البطي" سقط في البحر حزناً عليه "لما بلغ الخبر عمر زيدان لم يصدق .. وذكر من كان موجوداً أن عمر زيدان ومحبيه منذ أن سمعوا الخبر وحتى الفجر لم يهدءوا، ولم يتوقفوا عن الشراب والغناء والبكاء، وذكر أيضاً أنهم نزلوا إلى البحر حين نزل القمر وطلبوا من الذين على الشاطئ،

---

(١) التيه. ص ٢٨٣.

(٢) المصدر نفسه، را ص ٢٨١ - ٢٨٣.

أو من كانت بيوتهم قريبة أن يساعدوهم في انتشال القمر قبل أن يغرق، وينتهي"[1]. إن غياب القمر بدورانه الطبيعي عن سماء الطريفة المطلة على البحر أوهم الناس أن القمر سقط في البحر، فحاولوا إنقاذه، والراوي بحكيه لهذا الحدث يعبر عن تعاطفه الضمني مع خميس البطي مرة ثانية، لاعتقاده بأنه ظلم ظلما شديدا، لأنه كان أحد الثلاثة الذين تم إعدامهم جورا وظلما بعد أن اختيروا من السجن بشكل عشوائي ليتم تأديب الناس بإعدامهم[2].

و"الريح" لم تتحرك في فضاء الأمكنة لكونها ظاهرة طبيعية، بل كانت إنسانا ساميا، يحس بأخيه الإنسان، ويتعاطف معه حسب الموقف الذي يعيشه، فالريح شاركت الراوي فرحته، حين عرف اسم المرأة التي تعلق بها، وراح يلفظه بتلذذ "وأنا أصعد باتجاه شجرة الصنوبر بدأت أردد اسمها .. رددته بصوت عال، ثم بدأت أكتشف اسمها في الأصوات حولي، كان يصعد من صوت الريح"[3]. إن إحساسه بأن الريح تلفظ اسم "ليليان" هو نتيجة الفرحة الكبيرة التي غمرت قلبه، وجعلته يردد اسم حبيبته بشكل لا شعوري وهو مندمج بالطبيعة، وحين سمع صدى صوته، ظن أن الريح تلفظ ليليان.

والريح كما فرحت لفرح الراوي، حزنت على موت أحد سجناء سجن عمورية المركزي و"لأول مرة في هذا الشتاء الأجرد .. كانت الريح في الخارج بين فترة وأخرى تهب، وكأنها تذكرت الحاج مصطفى فأخذت تولول"[4].

---

[1] بادية الظلمات، ص ٤١٣.

[2] المصدر نفسه، را ص ٤٠٩.

[3] قصة حب مجوسية، ص ٤٠.

[4] الآن .. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، ص ٤٨٣.

و"السماء" أيضا عبرت عن حزنها على وفاته وتعاطفها معه "كانت السماء وهي تنزل القطرات القليلة، وكأنها تذرف الدموع وتتذكره أيضا"[1]، إن حزن الريح والسماء على وفاته هو انعكاس مباشر لحزن "عادل الخالدي" عليه، وتعاطفه معه، فحين سمع صوت الريح، وصوت المطر لأول مرة في فصل الشتاء القاحل آنذاك، استغرق فيهما ومنحهما مشاعره الحزينة، فأحس بأن الريح تولول والسماء تمطر حزنا على وفاة صديقه الحاج مصطفى.

و"الخريف" حين عم الصمت في مدينة موران نتيجة الاضطهاد الذي مارسته السلطة الحاكمة في السلطنة الهديبية أثناء حربها مع الدواحس، شارك الناس في حزنهم وصمتهم وبدأ عاريا من كل ملامحه المعروفة "الخريف الذي بدأ موحلا شارك الناس الصمت، إذ لم تعد ترى في السماء غيمة، ولا تسمع خفقة"[2]، إن خلو الخريف من الغيوم، وصوت الريح الخفيف هو الذي جعل الراوي المتعاطف مع البشر في موران والدواحس في أزمتهم يحس - وهو يحكي تلك الأحداث الأليمة التي وقعت في فصل الخريف آنذاك الذي بدأ بلا ملامحه المتميزة - بأن الخريف تجرد من ملامحه حزنا على البشر وتعاطفا معهم.

وما نلاحظه في تبلور الطبيعة هو اتسامها بالشمولية، فقد أنسنت الحيوانات والطيور والأشجار والأشياء والقمر والرياح والسماء والخريف، واكتسبت صفات إنسانية سامية، وبأنسنتها خرجت عن وظيفتها البيولوجية أو الطبيعية، وقامت بدور إنساني خلاق هو الإحساس بواقع البشر الأليم، والتعاطف معهم، وقد لا يقع هذا العمل في الحياة، وإن كانت بعض الأفعال التي قامت بها الحيوانات واقعية، لكنه يتسق مع فهم عبد الرحمن منيف

---

(1) المصدر نفسه، ص ٤٨٣.

(2) بادية الظلمات، ص ٥٠٤.

للواقعية، فالواقعية في اعتقاده "ليست هي الأشياء التي حصلت بالفعل، وإنما هي الأشياء الممكنة الحصول حتى ولو لم تحصل واقعيا"[1]، فجاءت أنسنة الطبيعة منسجمة مع مفهومه للواقعية، لأن الفن ليس تقليدا لعالم الواقع، ولا نسخة طبقة الأصل أمينة عن الأشياء، وإنما هو رؤية روحية تعيد خلق الواقع من جديد بغناء أكثر، أو تخلق واقعا جديدا أعمق من الواقع المباشر وأعظم ثراء[2].

والدور الإنساني الذي قامت به الطبيعة هو التعاطف مع البشر البسطاء الذين وقعوا تحت قسوة ظروف الحياة، وهيمنة السلطة الحاكمة المستبدة في أماكن عدة وكان الحزن هو محور تعاطفها مع البشر باستثناء حالتين فقط كانتا تعاطفا في حالة الفرح، وهما فرح الحمار سلطان بعودة صاحبه إلياس نخلة، وترديد الريح لاسم ليليان، وقد بلغ تعاطفها في بعض الحالات حد الروعة حين شاركت الذين تعاطفت معهم فعل الموت، فاتسام تعاطف الطبيعة بالحزن على البشر البسطاء المغلوبين على أمرهم الذين لم يكونوا في حالة اغتراب عنها دليل على حالة الواقع السيء الذي كانوا يعانون منه معاناة فظة، ولذلك يكون تعاطفها معهم استنكارا لما حل بهم، واحتجاجا غير مباشر على كل من أساء إليهم، وظلمهم، وهضم حقهم، وجعل حياتهم خالية من الفرح والكرامة. ولذلك مكنتنا أنسنة الطبيعة من تلمس تجليات العالم الخارجي في تلك الأماكن التي عاش فيها البشر الذين تعاطفت معهم، وجعلت الحياة تتسم بالحيوية والإنسانية بخلاف ما هي عليه.

---

[1] السامرائي، ماجد، فاضل، جهاد: ١٩٨٠ - حوار مع عبد الرحمن منيف، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، عدد ٧/٦ تشرين الأول وتشرين الثاني، ص ١٣٧.

[2] اليافي، د. نعيم، ١٩٨٢، التطور الفني لشكل القصة في الأدب الشامي الحديث. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، را ص ١٩٣.

وعبد الرحمن منيف حين أنسن الطبيعة بشكلها الشمولي، وجعلها تتعاطف مع الإنسان، وتعبر عن سخطها واحتجاجها لما يحدث، عبر عن ظاهرة الارتسام النموذجي لما ينبغي أن تكون علية الطبيعة في لحظة إنسانية لا تخضع للقياس العقلي وعبر عن مثله الأعلى، لأن الطبيعة لا تشرق جماليا إلا "عندما يدخل الإنسان استيعابها الفكري في تيار دورة تصل الطبيعة بما يعلو عليها، وبالمثل الأعلى"[١]، وأجل الإنسان، و أعلى من قدره، ودافع عن حقه في الحياة الكريمة ورد له كرامته المسلوبة، لأنه يعتقد أن الإنسان هو مركز الحياة، وكل شيء يجب أن يكون في خدمته، وقد قال لنا في حديث خاص حين سألناه عن هذه القضية "أن الطبيعة بعناصرها ومظاهرها تدور حول حلقة واحدة، والإنسان هو مركز هذه الحلقة"[٢]، ولأن "كل عمل عظيم يكشف موقف مؤلفه حيال الوجود"[٣]، "كان الإنسان هو الغاية المطلقة التي تمت أنسنة الطبيعة من أجلها، "فعبد الرحمن منيف لم يرد الكتابة لذاتها، ولم يبغها بقصد آخر غير التعبير النزيه عما في نفسه من ألم"[٤]، ولده ترهل الواقع الإنساني الذي يعاني منه الإنسان في المجتمع العربي معاناة شديدة القسوة.

---

[١] بلوز، د. نايف: ١٩٨٣م – علم الجمال، جامعة دمشق، ط٢، ص ٨١.

[٢] جرى حوارنا مع عبد الرحمن منيف في دمشق، أيلول ١٩٩٤.

[٣] برتلمي، جان: بحث في علم الجمال، تر: د. أنور عبد العزيز، مرا: د. نظمي لوقا، دار نهضة مصر، القاهرة، ص ٥٧٠.

[٤] الموسوي، د. محسن: ١٩٨٨ – الرواية العربية (النشأة والتحول)، دار الآداب، بيروت، ط١، ص ٣١٥.

الفصل الثالث

مستويـــات الأنسنـــة

إن الحيوانات والطيور هي كائنات ضعيفة غير عاقلة، تعتمد على غريزتها البيولوجية في الحياة ولكنها أنسنت، وتميزت بسمات إنسانية خيرة، وقامت بدور إنساني لم يقم به البشر - باستثناء موقف شمران العتيبي من عملية الحد - وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنها حين أنسنت تساوت بإنسانيتها مع الإنسان الذي لم يجد فرقا بينه وبينها، وتميزت عن البشر بإنسانيتها الخيرة، حين تعاطفت مع الناس المعذبين الحزانى والمغلوبين على أمرهم، وتفانت مع غيرهم، وكانت في حالة وحيدة أدنى من الإنسان لأنها لم تؤنسن. وهذا يعني أن إنسانية هذه الكائنات لم تتجل في مستوى واحد، وإنما تعددت مستويات إنسانيتها، ولأنها تميزت على الإنسان بإنسانيتها وجدنا من الواجب علينا أن نقدم هذا المستوى على بقية المستويات إنصافا لها، وتقديرا لإنسانيتها الخيرة.

١ - أفضل من الإنسان:

إن الحيوانات والطيور حين تتصرف تصرفا حسنا وذكيا بشكل متميز عن سلوك الإنسان، تعد من دون أي شك أفضل منه، لأنه صاحب عقل مفكر، يمكنه من التصرف بشكل مناسب وسليم، فسلطان حمار الياس نخلة بذكائه صاحبه إذ يحدد الطريق الذي يجب أن يسير عليه الياس ليوفق في بيع الأشياء التي يحملها "كان حمارا عجيبا وذكيا .. كان يفهم أكثر من البشر دون أن يقول كلمة واحدة .. وهو الذي كان يشترى ويبيع للناس أكثر مما أفعل أنا. كان يقودني من قرية لأخرى، وكأن الحيوانات تمتلك حواسا تجعلها تفهم أكثر من البشر .. فعندما أطيعه نبيع ونربح، أما إذا عاندته، وهذا ما كنت أفعله أول الأمر، فينقضي يومنا دون أن نربح شيئا"[1]. إن اعتقاده بأن حماره ذكي ويعي أكثر من البشر ناتج عن إحساسه بأنه كان

---

[1] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ٦٧.

يوفق في بيع ما يحمله من أشياء حين كان يتجه إلى القرية التي يولي سلطان وجهه نحوها، بخلاف فشله في بيع الأشياء حين كان يمتنع عن الذهاب إلى القرية التي كان سلطان يريد أن يتجه إليها. ويبدو أن حاجة الناس إلى شراء الأشياء كانت ملحة في القرية ومتزامنة مع اختيار سلطان لهذه القرية، بخلاف عدم حاجة الناس لشراء الحاجيات في القرية التي كان الياس يختارها.

و"وردان" كلب زكي نداوي لم يكن مجرد كلب صيد يسهوى التقاط الطيور المصابة التي تقع على الأرض، بل كان حيواناً تميز بشدة ذكائه، وحدة إحساسه عن صاحبه، "أنت أذكى مئات المرات من زكي نداوي. لديك دائماً ما تفعله"[1] إن هذا الإعلاء من قدر الكلب ناتج عن الحركات والأفعال التي كان يقوم بها وردان بشكل متواصل في حين أن زكي نداوي كان قوالاً، ولم يتمكن من فعل ما أراد أن يفعله.

وقد بلغ الأمر بزكي درجة قصوى وذلك حين فضل الحيوانات بشكل عام عن البشر، "الحيوانات أحسن آلاف المرات من البشر، لأنها مفيدة ولأنها تستطيع أن تدافع عن نفسها"[2]، إن تفضيله للحيوانات على البشر ناتج عن اعتقاده بأن البشر لا فائدة منهم، لأنهم لم يحاولوا مجابهة عدوهم، ورده عن أرضهم.

ولأن الطيور تتمسك بأعشاشها، ولا تتخلى عنها فضلها أيضًا على البشر "الطيور مخلوقات جسورة، وتختلف عن الإنسان، فهي لا تتخلى عن أعشاشها، لكن ما هو العش؟ العش وطن الطيور .. أما البشر.. وبصقت"[3].

---

[1] حين تركنا الجسر، ص ١٧٧.

[2] المصدر نفسه. ص ١٤٩.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٢، ومواضع أخرى فضل فيها زكي نداوي الحيوانات والطيور على الإنسان، راص ٢٣، ١٧٤، ١٧٥.

إن إعجابه بشجاعة الطيور، وتمسكها بأعشاشها التي هي أوطان لـــها جعلـــه يفضلها على البشر في وطنه الذين تميزوا بضعفهم وخوفهم، وتخلـــوا عـــن أرضهم وتركوها لقمة سائغة لعدوهم.

و"حمار" ابن المدور كان أذكى من "الدريبي" الذي وصل إلى الـــهند والسند ومصر[1]، وذلك حين أضاع الدريبي أهل وادي العيون خلال رحلتـــه معهم إلى الخبرة الشرقية فبقى في مكانه تائها، لا يعرف طريق العودة، لكـــن أحد حمير وادي العيون أوصله إلى الوادي. وقد روى متعـــب الـــهذال هـــذه الحادثة لابنه هديب: "فالدريبي راح مع الجماعة إلى الخبرة الشـــرقية، ولمـــا التفتوا ما وجدوا له أثرا .. ضاع الدريبي، ملـــح وذاب، ولـــولا رحمـــة الله، وفطنه حمار من حمير الوادي لظل بمكانه ومـــات .. حمـــار ابـــن المـــدور للدريبي هو اللي قاده، وهو اللي رجعه[2]، إن اقتيـــاد حمـــار ابـــن المـــدور للدريبي الذي ضاع، ولم يتمكن من العودة إلى وادي العيـــون وهـــو الرجـــل الخبير بالأمصار، دليل على أن الحيوان في هذا الموقف أفضل من الإنســـان، والحمار هنا كان بمثابة الدليل للدريبي، والتفضيل في هذا السياق لم يفصـــح عنه الراوي بطريقة مباشرة لأنه حكى هذه الحادثة معتمدا على قول متعـــب الهذال.

و"الطيور والحيوانات" كانت أفضل من البشر فـــي نظـــر الدكتـــور "صبحي المحملجي" "الطيور والحيوانات أفضل من الإنسان لأنها تعرف كيف تعيش. أما الإنسان فيعرف شيئا واحدا كيف يقضـــي علـــى الآخـــر"[3]، إن تفضيله للحيوانات والطيور على البشر هو انعكاس مباشر لحالتـــه الصعبـــة

---

[1] التيه، ص ٤١.

[2] المصدر نفسه، ص ٤١ – ٤٢.

[3] المنبت، ص ١٢٨.

التي كان يعانى فيها من الضياع والغضب والقلق، ولإحساسه بالوحدة بسبب غياب زوجته وداد الحايك التي لم تسعده، وتفهمه،ولجهله حقيقة ما يفعله ابنه غزوان وما يجنيه من أرباح، ولرغبته التي لم تتحقق في السفر إلى الولايات المتحدة[1]، فتراكمت عليه هذه المتاعب في إحدى الأمسيات، وهو يصغي إلى تغريد الطيور الذي كان يأتيه من الحديقة القريبة من غرفته.

والأشياء التي أنسنت كانت أفضل من الإنسان، "الجسر أقوى من الرجال، وأذكى منهم، لأنه لا يغادر مكانه أبدا .. أما الرجال حين يتركون الجسر، فإنهم ينتهون"[2]. إن تفضيل زكي نداوي للجسر على البشر لشجاعته، وذكائه، هو نتيجة الهزيمة التي يعاني منها بعد أن أجبر ورفاقه على ترك الجسر والفرار من ساحة المعركة قبل بدئها، فبقي الجسر في مكانه.

وفي هذا المستوى نود أن نقول: إن عبد الرحمن منيف حين أنسن الحيوانات والطيور والأشياء، في رواياته، أعلى من شأنها، وقيمتها، ومكانتها وحين قارنها بالإنسان العاقل وفضلها عليه، زاد من قيمتها، وإنسانيتها وهذا التفضيل هو إثبات لحالة الضعف التي تعتري الإنسان، وإدانة له، لأنه تخلى عن قيم الإنسانية والمثل والمبادئ، وفضح للجبناء الذين تركوا أرضهم،ولم يدافعو عنها.

وهذا التفضيل ذكره البشر الذين كانوا على علاقة وثيقة بالطبيعة، ولم يتدخل (الراوي) في تفضيل هؤلاء البشر للحيوانات والطيور على الإنسان. لأنه في تقديرنا معجب بهذا التفضيل، إن لم يكن يؤيده.

---

(1) المصدر نفسه، ص ١٢٦، ١٢٨.

(2) حين تركنا الجسر، ٤٣.

٢ - توازن وانسجام:

لم تتجل الحيوانات والطيور بإنسانيتها أفضل من الإنسان بشكل مطرد، فقد توازنت بحياتها، وأفعالها مع حياة الإنسان وأفعاله، ونشأت بينهما ألفة وأخوة نتيجة الانسجام بينهما، فالياس نخلة المزارع الذي هجر بلدته، وشهد مراحل تبدل الحياة فيها، وتشرد في الجبل، والمدينة وتنقل بين القرى، وعمل في عدة مهن، وتزوج أكثر من امرأة، وأدرك قيمة الطبيعة، وعرف الحياة الإنسانية عن كثب، وصل إلى اعتقاد مفاده أن "حياة الإنسان تتشابه مع الكلاب والحمير .. إذا كانت صادقة"[١]، وهذا الاعتقاد ناتج عن الحياة التي عاشها بصدق، ولمس خلالها حياة أحد عناصر الطبيعة (الحمار) الذي كان محباً له، ولهذا السبب أكد الياس على عمق هذه العلاقة التي كانت صادقة إلى درجة الألفة "بعد أن اشتريت سلطان .. تولدت بيننا ألفة قلما تجتمع لاثنين"[٢]، فالألفة هي التي تخلق التعايش بصدق بين الطرفين، وتجعلهما متشابهين، ومنسجمين.

وزكي نداوي الذي أحب كلبه وردان، وفضله لذكائه على البشر، أكد في نفس الوقت أنهما متساويان "نحن أخوة يا وردان، نعم أخوة وفينا شيء مشترك. صفات مشتركة"[٣]، وإكراماً لهذه الرابطة الأخوة، أكد لكلبه أنه سيقاسمه فرحة الظفر بملكة البط "إذا قتلنا الملكة نمنح أنفسنا إجازة طويلة، يجب أن ننتف ريشها، أن ننشره في الشمس بعد غسله، أن نرتبه ليكون وسادة تليق بظهرك ورأسي"[٤]، فهذا النزوع التشاركي دليل على الروح الإنسانية المتوازنة التي يحس بها زكي نداوي تجاه كلبه وردان.

---

[١] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ١١٥.

[٢] المصدر نفسه، ص ٦٧.

[٣] حين تركنا الجسر، ص ١٨.

[٤] المصدر نفسه، ص ١٩٤.

وكذلك عدّ أحد المسنين من أهالي الطيبة أن الحيوانات تتشابه مع البشر، "يستغرب الإنسان أنه في حالات كثيرة لا يمكن التفريق بين الحيوانات والبشر"[1]، "إن استغراب المسن لتشابه الحيوانات مع البشر بشكل كامل هو نتيجة معرفته لما فعله كلب عساف حين تعرض عساف للعاصفة في الصحراء.

١- أدنى من الإنسان:

من المعروف أن الإنسان بإنسانيته السامية، وحسن أخلاقه، أفضل من الحيوانات والطيور والأشياء وقد عثرنا على حالة واحدة فقط عدّ فيها الياس نخلة الإنسان أفضل من الحيوانات والطيور "الإنسان أقوى المخلوقات على هذه الأرض، وأضعفها أيضاً، والحيوان له قدرة على المقاومة، ولكن في النهاية يسلم، الحشة الصغيرة تقاوم، ولكن في لحظة معينة تتوقف، أما الإنسان هذا المخلوق العجيب الذي يحمل تحت جلده كل شيء فإنه يستطيع أن يكون ضعيفاً، ويستطيع أن يكون قوياً بلا حدود، إن هذا يتوقف على الإنسان نفسه"[2]، إن اعتقاده بأن الإنسان أقوى من كل الكائنات دليل على تفضيله الإنسان على الكائنات الحية، إلا أن التفضيل مشروط بوجود إرادة الإنسان الصلبة، ورغبته الوطيدة في أن يكون أقوى المخلوقات على الإطلاق إن أراد أن يكون أقواها بكل حق.

وما نلاحظه في هذه المستويات أن عبد الرحمن منيف لم يوازن بين الإنسان والمكان الذي أنسنه وقد اقتصر في موازنته بين الإنسان والطبيعة بكل عناصرها، ومظاهرها باستثناء (الشمس)، وهذا في تقديرنا يمكن أن نرده إلى تأثير البشر بالحيوانات والطيور تأثراً نتيجة علاقتهم المباشرة معها.

---

[1] النهايات. ص ١٤٧.

[2] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ١٤٧.

وبشكل عام وجدنا أن الطبيعة كانت مكتظة بعناصرها وظواهرها في المكان، لأن عبد الرحمن منيف لم يقدمه على أنه مساحة جغرافية جرداء، أو كإطار خلفي لوقوع الأحداث، وإنما قدمه كفضاء بشرى، جغرافي صاخب بالطبيعة. وقد نالت الحيوانات والطيور والأشجار وبعض ظواهر الطبيعة جل اهتمامه، فتداخلت في رواياته بقوة وحيوية، ومذاق خاص، فبدت مهمة كأهمية أشخاصه، بل أن أشخاصه تجوهروا عبر الطبيعة المحيطة بهم، وبدوا كأنهم امتداد لها، وهذا الحس للطبيعة، هو جزء من حسه المكانى[1] المتكون نتيجة نشأته الأولى في بيئة كانت علاقتها مع الطبيعة علاقة أولية مباشرة[2]، ونظرته الكلية إلى الحياة، لأنه يرى الكون في مداه الشامل، ويعبر عنه بالشكل الذي يراه، "فالأولية في التأليف تكشف الغطاء عن أولية النظرة إلى العالم في سريرة الكاتب[3]، وعن علاقته بالمحيط الذي يعيش فيه، لذلك يسعى الفنان الأصيل دائما في مؤلفاته إلى استخلاص معنى ظواهر الحياة في تنوعها، وتداخلها، وتكامل ظواهر الحياة، واندراجها في المكان وتداخلها معه، يضفي على العمل الإبداعي طابعا فنيا جماليا، وهذا ما صنعه منيف، مما جعل المكان في رواياته أقرب إلى التشكل والتجسد والإمكان والتكامل، محققا بذلك قيمة جمالية من خلال دخوله في منظومة الكون الشاملة، وكاشفا

---

[1] جبرا، جبرا إبراهيم: ١٩٧٩م – ينابيع الرؤيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ص ٣٦.

[2] دراج، د. فضيل: ١٩٨٨ – حوار مع عبد الرحمن منيف، النهج. مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ع ٣٨، را ص ٣٤٧.

[3] لوكاتش جورج: ١٩٧٠ – دراسات في الواقعية، تر: د. نايف بلوز، وزارة الثقافة. دمشق، ص ١٠٩.

في الوقت نفسه جماليا عن موقفه من العالم، "لأن علم الجمال يحدد من زاوية معينة علاقة الإنسان بالعالم، وينطوى على نظرة شاملة إلى العالم"[1].

وقد كانت ظاهرة أنسنة الطبيعة تعبيرا عن المثل الأعلى الذي يؤمن به، وينطلق منه في رواياته، ونوعا من مناصرة الإنسان والإحساس به، نتيجة الخلل الذي حدث في واقع الحياة الإنسانية بسبب تقاعس الإنسان عن مناصرة الإنسان، والإحساس بأزمته وقت المحن، وهذا ما حقق جمالا للنص الروائي، فعندما قامت الطبيعة بوظيفة إنسانية خيرة وضرورية، تم التوازن والتكامل في الحياة لأن "الجمال في الحياة، وفي الفن يتولد من التوافق بين ما ينبغي أن تكون عليه الطبيعة، والأشياء، ووجودها الواقعي، فهي جميلة بمقدار ما تفصح عنه من انسجام وتوازن وتكامل"[2].

وفي تقديرنا أن إضفاء ملامح إنسانية سامية على مظاهر الطبيعة وظواهرها لجعل الحياة تتوازن وتتكامل، وتتسم بطابع الروعة، هو عبارة عن تخريج مباشر لذات الروائى عبد الرحمن منيف، ولأفكاره الخلاقة ولنظرته السامية إلى الإنسان، ولفهمه الجميل للحياة الكريمة، كما يجب أن تكون لأن "الرائع الموجود في كافة مجالات الواقع الأخرى، والذي لا يصبح رائعا في عيني الإنسان إلا لأنه إشارة إلى الرائع في الإنسان وفي حياته"[3].

ولذلك بدت أنسنة الطبيعة رائعة بسبب تعاطفها مع الإنسان، ومناصرتها له وقت المحن، وارتباطها بالمثل الأعلى، وتعبيرها عن الحياة تعبيرا حيا رائعا و"الرائع هو الكائن الذي نرى فيه الحياة، الحياة كما يجب أن

---

(1) جماعة من الأساتذة السوفييت: ١٩٧٨ - أسس علم الجمال الماركسى اللينينى. تر: د. فؤاد المرعي، دار الفارابى، بيروت، دار الجماهير دمشق، جزء ٣، ص ٢٥.

(2) بلوز، د. نايف: علم الجمال، ص ٩٩.

(3) نيشفسكي، ن.غ: ١٩٨٣ - علاقات الفن الجمالية بالواقع، تر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة. دمشق، ص ٣٤.

تكون حسب مفاهيمنا، والرائع هو الشيء الذي يظهر في ذاته، أو الذي يذكرنا بالحياة"[1]، التي يجب أن نعيشها.

ولأن هذه الظاهرة الجمالية عبرت عن الحياة تعبيرا رائعا، وذكرتنا بالحياة التي يجب أن نعيشها، لابد أن تثير فينا ردود فعل انفعالية، وتغرس قيما إنسانية سامية، وتشعرنا بروعة الحياة، وتنمي فينا دوافع الخير والإحسان والحق، وتزيد معارفنا الجمالية التي تمكننا من معرفة ما لا نعرفه عن الإنسان والأشياء في الطبيعة، لأن "المعرفة الجمالية كشف عن الإنسان وعن الأشياء في واقعها العميق الذاتي وفي أشد علاقتها خصوصية، ولهذا فهي تسمح لنا بأن نتنبأ بما وراء الأشياء والإنسان"[2]، في الوسط الذي يعيش فيه، و"هكذا تغدو علاقة الإنسان الجمالية بالعالم وبأشيائه حافزا لإقامة العلاقة الجمالية بين الإنسان وذاته، والإنسان ومجتمعه، ومثله الأعلى"[3]، وبذلك تتحقق القيمة التربوية المنشودة التي يرغب عبد الرحمن منيف في أن تلقى استجابة واسعة لدى الإنسان.

---

(1) المرجع نفسه، ص ١٨.

(2) برتلمي جان: بحث في علم الجمال، ص ٥٧٠.

(3) بلوز، د. نايف: علم الجمال، ص ٩٦ ـ ٩٧.

المصادر والمراجع

١- المصادر:

منيف، عبد الرحمن:

١- الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

٢- قصة حب مجوسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

٣- شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ١٩٨١م.

٤- حين تركنا الجسر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٦٠، ١٩٩٠م.

٥- النهايات، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٦- عالم بلا خرائط، (بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٧- التيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

٨- الأخدود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٩- تقاسيم الليل والنهار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٠- المنبت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١١- بادية الظلمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٢- الآن، هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، المؤسسة العربيــة للدراســات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٢- المراجع:

١- باختين، ميخائيل: ١٩٩٠، أشكال الزمان والمكان فــي الروايــة، تــر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط١.

٢- برتلمى، جان، بحث في علم الجمال، تر: د. أنور عبد العزيز، تـــر: د. نظمى لوقا، دار النهضة مصر، القاهرة.

٣- بلنسر، هلموت، ١٩٦٩م، الإنسان بوصفه كائنا حيا، تر: مجدى يوســف، فكر وفن: ميونيخ، س٧، ع١٣.

٤- بلوز، د. نايف: ١٩٨٢م، علم الجمال، جامعة دمشق، ط٢.

٥- نيشفسكي، ن، غ: ١٩٨٣م، علاقات الفن الجمالية بالواقع، تــر: يوســف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق.

٦- ثابت، محمد رشيد، ١٩٩١م، روايات عبد الرحمـــن منيــف، أشــكالها ودلالتها، شهادة التعمق في البحث، جامعة تونس الأولـــى، كليــة الآداب منوبة.

٧- جبرا إبراهيم جبرا، ١٩٧٩م، ينابيع الرؤيا، المؤسسة العربية للدراســات والنشر، بيروت، ط١.

٨- جماعة من الأساتذة السوفييت، ١٩٧٨م، أسس علم الجمـــال الماركســي اللينيني، تر: د. فؤاد المرعى، دار الفارابي، بــيروت، دار الجمــاهير، دمشق، (جزءان).

٩- الحميدي، د. أحمد جاسم: ١٩٨٧م، البطل الملحمي فــي روايــات عبــد الرحمن منيف، دار الأهالي، دمشق، ط١.

١٠- دراج، د. فيصل، ١٩٨٨م، حوار مع عبد الرحمن منيف، النهج، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ع ٣٨.
١١- سالم، د. سالمة إبراهيم، ١٩٨٠م، نقد الرواية من جهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، النادي الأدبي، الرياض.
١٢- السامرائي، ماجد، وفاضل، جهاد، ١٩٨٠م، حوار مع عبد الرحمن منيف، الفكر العربي المعاصر، معهد الإنماء القومي، بيروت، ع ٦/٧.
١٣- الغزي، ثامر، ١٩٧٧م، البنية الدلالية في رواية شرق المتوسط، شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب منوبة.
١٤- لوكاتش، جورج، ١٩٧٠م، دراسات في الواقعية، تر: د. نايف بلوز، وزارة الثقافة، دمشق.
١٥- مجموعة من الباحثين، ١٩٧٧م، الإنسان والمدينة في العالم المعاصر، تر: كمال الخوري، وزارة الثقافة، دمشق.
١٦- المعموري، ناجي، ١٩٨٠م، حين تركنا الجسر، الأقلام، وزارة الثقافة، بغداد، س ١٥، ع٤.
١٧- الموسوي، د. محسن، ١٩٨٨م، الرواية العربية (النشأة والتحول)، دار الآداب، بيروت، ط١.
١٨- اليافي، د. نعيم، ١٩٨٢، التطور الفني شكل القصة القصيرة في الأدب الشامي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
١٩- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٣م.

الفهرســــت

تم بحمد الله

مع تحيات

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

